الكنوت المسيحى

٤٤٩٧
٢٦٥,٧

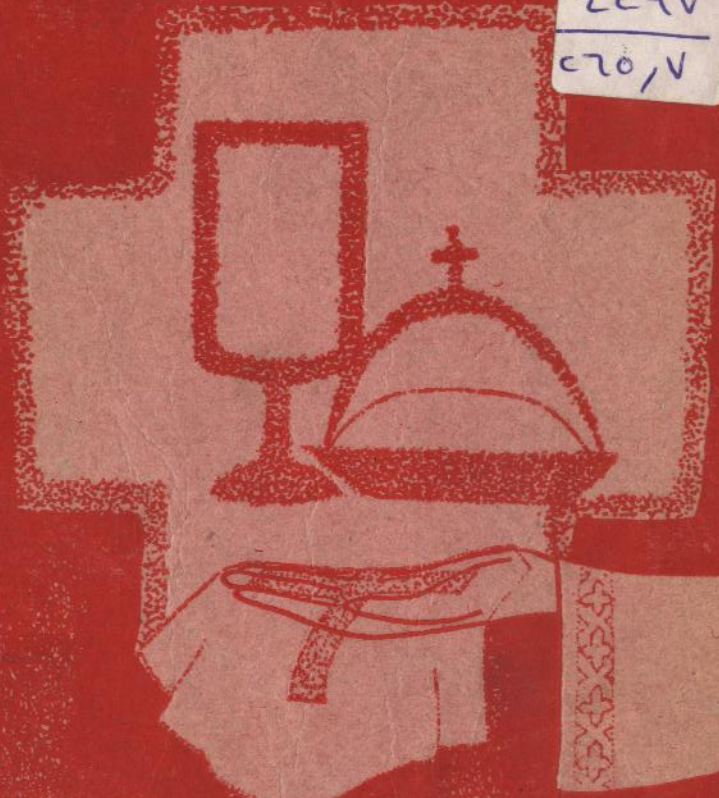

يوحنا ذهبى الفم

تقديم

اليك أيها القارىء المحبوب .. نقدم هذا الكتاب . وسواء كنت كاهنا أو خادما أو قارئا عاديا .. فهذا الكتاب اليك ، اليك وحدك .. أنه كتاب « الكهنوت المسيحى » ، كتبه القديس العظيم يوحنا ذهبى الفم فى ستة كتب ، ووجهه الى صديقه الحميم باسيليوس ، عندما هرب الأول من محاولة تنصيبه لخدمة الكهنوت ، بعد أن كانا قد اتفقا سويا أن ينالا هذه النعمة معا .. وتناول فيه موضوع الكهنوت من جهة وظيفته وكرامته ومسئولياته .. لذا يعتبره بعض الآباء **أعظم ما كتبه ذهبى الفم** ، ويصفه البعض الآخر أنه **جوهرة الكتابات المسيحية** ، وقطعه رائعة فى فن البلاغة ..

قال عنه ايسيدور بعد نياحة ذهبى الفم : « ليس من يقرأ هذا المجلد الا ويشعر بقلبه يلتهب بحب الله .. لأن يوحنا .. المفسر الحكيم للأسرار الالهية ونور الكنيسة كلها وضع هذا العمل بمهارة ودقة »(١) ..

فى هذا الكتاب تجد الخدمة مجسمة .. ففى مجال الحديث عن مسئولية الرعاية يقول : « ليكن الفارق بين

---

(١) مقدمات فى علم الباترولوجى للقس تادرس يعقوب ص ١١٧

الراعى ورعيته بمقدار ما بين العاقل والمخلوقات غير الناطقة ان لم يزد .. لأن من يؤتمن على خراف المسيح الناطقة عليه أولا أن يحتمل عقوبة ضياع الخراف ، عقوبة تفوق الأمور المادية ، عقوبة تمس حتى نفسه .. » ثم يقول « ان الراعى فى حاجة الى التوفيق الكثير ، وأن تكون له ربوة من العيون ليلاحظ كل نفس على سجيتها » ..

أما عن الراعى نفسه فيقول : « وجب أن يتمتع الراعى بروح عالية حتى لا يفشل أو ييأس من خلاص التائهين عن القطيع ، بل يقول فى نفسه دائما : عسى أن يعطيهم الله توبة لمعرفة الحق ، فيستفيقوا من فخ ابليس » .

أما عن عمل الكاهن فيقول « ان عمل الكاهن يسمو عن عمل العلمانى بمقدار سمو الروح عن الجسد .. اذ قيل لهم من فم الرب نفسه : كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطا فى السماء ، وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولا فى السماء . (متى ١٨ : ١٨) فهذا الربط يقع على الروح ويخترق السموات . وما يفعله الكهنة هنا على الأرض يصادق الله عليه من فوق . وما ينطق به العبيد يؤيده السيد .. انهم قد أؤتمنوا بالحقيقة على آلام المخاض الروحى والميلاد الذى يجرى بالمعمودية .. اننا بواسطتهم نلبس المسيح ، وندفن مع ابن الله ، ونصير أعضاء فى ذلك الجسد المقدس » .

اخير نصارحك أن هذا الكتاب يعتبر مرجعا لكل نفس احبت المسيح حبا دفعها الى الخدمة حسب وصيته : « اتحبنى ؟ .. ارع غنمى » (يوحنا ٢١ : ١٦) فقد عالج هذا الكتاب جميع المواقف التى تواجهنا فى مجالات الخدمة، والتى لا نستطيع فى بعض الأحيان أن نجد لها علاجا ، فهو يشخص المرض ، وفى نفس الوقت يصف العلاج .

والآن نتركك لتعيش مع الرعاة ومع القطعان .. وتطلب من راعى الرعاة الأكبر الذى بذل نفسه عن الخراف أن يعود ويطلع على غنم رعيته ..

الكنيسة

محتويات الكتاب

مقـــدمة	٩
الـكتاب الأول	١٧
الـكتاب الثانى	٣٣
الـكتاب الثالث	٤٩
الـكتاب الرابع	٩١
الـكتاب الخامس	١١٩
الـكتاب السادس	١٣١

الـكهنوت المسيحى

للقديس يوحنا ذهبى الفم

مقـــدمة*

أن الحوادث المسجلة فى هذا المقال الشهير عن الكهنوت ، ربما حدثت عندما كان القديس يوحنا ذهبى الفم فى حوالى الثامنة والعشرين من عمره . توفى والده بينما لم يزل هو طفلا صغيرا ، وكانت أمه مسيحية تقية ، ولكنها لم تكن تأمل أن يسلك ابنها فى الدعوة الكهنوتية . وقد أبدى فى حداثته قدرة كبيرة اظهرت استعداده للنبوغ فى مهنة من المهن الثقافية ، وبالفعل بدأ فى سن الثامنة عشرة يلتحق بمدرسة ليبانيوس ، أحد الفلاسفة السفسطائيين المشهورين فى ذلك الوقت ، والذى كان صيته واسعا كأستاذ للفلسفة والبلاغة ، وكان من أكبر المعارضين للمسيحية ، ليس فى أنطاكية موطنـــه الأصلى فحسب ، بل أيضـــا فى أثينا ونيقوميديا والقسطنطينية . وكان كثيرا ما يبدو متكلفا ومتصنعا فى كتاباته ، مما يكشف عن ضعف قدرته الأدبية ، يحاول جاهدا أن يقلد الكتاب القدامى فى أسلوبهم ، من غير أن يتشبع بروحهم . فهـو وكتاباته ، كما يقول جيبسون

* By : Rev. W. R. W. Stephens.

(فصل ٢٤) ، فى الجانب الكبير منها مقالات تافهة عقيمة ، لخطيب يعمل على تزويق الألفاظ .

ولا ريب أن ذهبى الفم درس فى مدرسة ليبانيوس لكبار الفلاسفة اليونانيين الكلاسيكيين . ورغم أنه لم يظهر اعجابا كبيرا بهم فيما بعد ، ولم يقرأ لهم الا القليل ، الا أن ذاكرته القوية مكنته بعدئذ أن يقتبس فى عظاته بعض أقوال هوميروس وأفلاطون وكتاب الروايات . وفى مدرسة ليبانيوس أيضا بدأ ينمى قدرته الطبيعية فى البلاغة ، حتى أن أستاذه ، فى رسالة له لازالت موجودة امتدح خطابا وجهه تكريما للأباطرة . وبهذا أعطى الفيلسوف الوثنى لذهبى الفم سلاحا يستخدمه ضده فيما بعد . حتى أنه عندما كان على فراش الموت سأله أصدقاؤه عمن يستحق أن يخلفه فقال « أنه يوحنا .. ان لم يكن قد سرقه المسيحيون » .

وفى وقت ما اشتغل ذهبى الفم فى مهنة المحاماة . وهذه المهنة كانت طريقا أكيدا لأن ينبغ فى مجال السياسة كرجل موهوب ، وكان هذا الطريق ممهدا أمامه ، وخصوصا بعد أن نالت خطبه اعجابا شديدا . ولكن روح المحامى الشاب كانت قد ارتوت بجرعات كبيرة من نبع أنقى مما أخذه فى مدرسة ليبانيوس ، وكأى مسيحى فى ذلك العصر ، فى مجتمع تلوث بأفكار الوثنية وعاداتها خصوصا فى مدينة

منحلة كأنطاكية ، كان لابد أن تتعثر حياته فى الصراع بين أخلاقيات العالم الذى يحيا فيه وبين مستوى القداسة الذى يقدمه الأنجيل ..

وقد اظهر عدم ارتياح لما كان سائدا فى مهنة المحاماة — التى كان يمارسها — من تلاعب وجشع مادى . وازدادت هذه المشاعر فى نفسه بتأثير صديقه الحميم باسيليوس ، الذى كان يزامله فى مدرسة ليبانيوس .

والكتاب الأول فى الكهنوت يبدأ بوصف صداقة ذهبى الفم مع باسيليوس ، وكيف درسا علومهما معا ، وكيف توافقا فى الأمزجة والميول . رغم أن باسيليوس عندما قرر أن يسير فى ما لقبه ذهبى الفم أنه « الفلسفة الحقيقية » أى الاعتكاف للتأمل والدرس ، لم يسرع ذهبى الفم فى أن يسير وراءه فى ذات الطريق . وهكذا اختل التوافق بينهما، فبينما ارتفع باسيليوس نحو السمائيات ، كان يوحنا مثقلا بالاهتمامات الأرضية والمطامع الشبابية . واستمر فترة من حياته يظهر فى ساحات القضاء ، ويتردد على المسارح وأماكن اللهو ، ولكن تدريجيا مع قراءة الكتاب المقدس ، ورغبة منه فى تجديد علاقته بصديقه ، وأيضا بتأثير القديس ميليتيوس أسقف أنطاكية المحبوب .. كل هذه الأمور بدأت تشغل تفكيره ، حتى أنه قرر أن يترك العالم . فكان أول ما فعله أنه بعد فترة الاختبار المعتادة نال العماد .

وربما يبدو مستغربا انه لم يعتمد فى طفولته ، فقد كان تأخير العماد عادة سيئة فى زمانه (وقد هاجمها ذهبى الفم فى عظاته) وذلك لأن البعض اعتقدوا أن الخطية قبل المعمودية اقل جرما منها بعد المعمودية ، والبعض الآخر كان يخشى أن يربط نفسه أو أولاده برباط القداسة الذى يتطلبه عهد المعمودية . وربما كان السبب الرئيسى — فى رأيى — فى تأخير عماد ذهبى الفم ، هو الوضع المفكك فى كنيسة انطاكيه . اذ انه من تاريخ ميلاد ذهبى الفم (حوالى ٣٤٥م) ، ولمدة ستة عشر عاما ، كان يجلس على كرسى انطاكية أساقفة اريوسيون يخدمون لحساب العالم . وفى عام ٣٦١ سيم الأسقف الصالح ميليتيوس ، وبعد حوالى سبعة أو ثمانية أعوام اعتمد ذهبى الفم من يده ، ثم سيم قارئا فى الكنيسة .

ولا شك أنه مهما كان السبب فى تأخير المعمودية ، فانها كثيرا ما كانت نقطة تحول حاسمة فى الحياة ، واعلانا لرفض قاطع العالم وتكريس الحياة كلها لله . وقد كانت هكذا بالنسبة لذهبى الفم . بعدها ظل ناسكا قانتا ، ثم اتجه للاعتدال فى نسكه مع عمق واضح فى التقوى ، ملتهبا بقوة لا تهدأ حتى نهاية حياته . ويشير الكتاب الأول (فقرة ٣) الى عماده وتركه للاتجاه الدنيوى حيث يتكلم عن «الخروج قليلا عن طوفان العالميات » التى كان قد غاص فيها .

اما صديقه باسيليوس الذى رحب به كثيرا ، فعلى مايبدو لم يكن قد ارتبط بجماعة رهبانية ، بل كان يحيا فى مجرد عزلة مع ممارسة بعض تداريب التقشف الرهبانية . وقد عقدا عزمهما على فكرة فحواها الهروب معا الى عزلة هادئة ، ليشدد احدهما الآخر فى دروب الدرس والتأمل والصلاة (فقرة ٤) . ولكن تنفيذ هذا المشروع تعطل لوقت ما أمام توسلات أم ذهبى الفم الا يحرمها من رفقته لها وعنايته بها . ولكن رفقته كانت الى حد ما عديمة الجدوى ، لأننا نعلم (من الكتاب ٦ فقرة ١٢) أنه نادرا ما كان يغادر المنزل ، محتفظا بسكونه الدائم ، منهمكا دائما فى دراسته وصلواته .

واستطاع بالفعل هو وصديقه باسيليوس وأصدقاء آخرون أن يكونوا فيما بينهم جماعة اختيارية من الشباب الناسك ، يعيشون تحت نظام صارم . وقد وضع ذهبى الفم ورفقاؤه النظام العام لدراساتهم وحياتهم الروحية ، تحت ارشاد ديودورس وكارتيريوس رئيسى أهم جماعتين رهبانيتين فى محيط انطاكية . وكان ديودورس يتمتع بقدرة فائقة فى التعليم ، مخالفا لتلك التفسيرات المجازية الرمزية للكتاب المقدس . التى غالبا ماتخفى اكثر مما توضح المعنى الحقيقى للنص المقدس . لذلك نحن مدينون كثيرا لتعاليمه فى هذا الأسلوب العملى المنطقى الواضح فى التفسير ،

الذي تفوق فيه ذهبى الفم بشكل واضح على كل آباء الكنيسة القدامى تقريبا .

وحوالى سنة ٣٧٤م ، وبعد أن مارسوا هذا النوع من الحياة فترة ليست طويلة ، اقلقهم خبر احتمال ترشيحهم للأسقفية (كتاب ١ فقرة ٦) . وكما جرت العادة فى الكنيسة ، كانا معرضين ــ اذا اختارهما الاكليروس والشعب ــ ان يمسكا بالقوة ويرسما ، مهما كانا غير راغبين فى هذه الدرجة (راجع الحاشية فى فقرات ٦ ، ٧) . وتوسل باسيليوس الى صديقه طالبا أن يكونا متفقين معا فى مواجهة هذه الأزمة ، كما كانا فى المرات السابقة ، وذلك بأنهما اما أن يقبلا سويا هذه الكرامة المقبلة التى لا يرغبان فيها ، أو يهربا ان كان ذلك فى استطاعتهما .

وتظاهر ذهبى الفم بالموافقة على هذا الاقتراح ، ولكنه داخليا قرر أن يدخل باسيليوس فى هذه الخدمة المقدسة ، لأنه كان يعتبره مستحقا بجدارة ، وفى الوقت ذاته كان يشعر فى نفسه بعدم الاستحقاق ، اذ لا ينبغى أن تحرم الكنيسة بسبب ضعفه من خدمات رجل مثل باسيليوس ، طالما كان هذا فى امكانه . ولذلك عندما أرسل جماعة الناخبين من يمثلهم ليمسكوا هذين الشابين ، وجد ذهبى الفم وسيلته ليختفى . أسلوب ذهبى الفم فى الكلام

يبين انه كان على علم بمجيئهم ، الأمر الذى اخفاه عن باسيليوس عن عمد ، فكانت النتيجة أنهم أمسكوا به .

وقاوم باسيليوس بعنف فى بادىء الأمر ، ولكنهم أوحوا اليه ان ذهبى الفم قد وافقهم ، وأمام هذه الحيلة رضخ للأمر . وعندما اكتشف هذه الخدعة التى خدع بها ، لام ذهبى الفم بشدة بالطبع لهذه الخيانة القاسية . ولكن ذهبى الفم كان يبدو مستريح الضمير تماما بالنسبة لما حدث ، ذلك لأنه اعتبرها خدعة صالحة وعندما وجد صديقه فى مزيج من مشاعر الضيق والغضب ، لم يتوقف ــ كما يقول ــ عن أن يضحك بكل فرح شاكرا لله على نجاح هذه الخدعة .

وظل ذهبى الفم حتى نهاية الكتاب الأول (فقرة ٨ ، ٩) يدافع عن مسلكه هذا ، ويتحدث عن مبدأ مضمونه أن الخداع لأجل غرض صالح له دائما مايبرره ويشجعه ، وخصوصا أنه تم بنبوغ ومهارة ، لأن من قام به كان قد تمرس الى عهد قريب فى ساحات القضاء . وان كان هذا التصرف ليس مرضيا لدى الكل ، ولكن ذهبى الفم كان له ما يبرره فى هذه الحيلة طالما انها تهدف للخير وأن كنا ، احقاقا للحق ، ينبغى أن نشهد أن الصفات البارزة فى حياة ذهبى الفم كانت الشجاعة والاستقامة والأمانة سواء فى التصرف أو القول ، بالرغم من الظروف التى كانت تلح عليه ان يتنكر للحق أو يساير الزمن .

وتعالج بقية مقالات الكهنوت ، موضوع سمو هذه الخدمة الكهنوتية وكرامتها وقدسيتها ، والمصاعب والمخاطر المختلفة التى تكتنفها . وهى مليئة بتأملات عميقة ودقيقة نافعة لكل الاجيال ، وان كانت على وجه الخصوص تلقى ضوءا على حالة الكنيسة والمجتمع فى العصر الذى عاش فيه ذهبى الفم .

وينبغى أن نلاحظ أنه قد تكلم عن الكهنوت عموما ، وليس من السهل أن نحدد الفقرات التى قصد بها ان يتكلم عن درجة معينة من درجات الكهنوت . وفى أحيان كثيرة ربما لم يكن يفكر فى واحدة دون الأخرى ، وكما كان مستقرا ، لم يكن الأسقف فى خدمته يتعدى حدود ايبارشيته ، بل كان يرعى مدينة كبيرة معينة ، فكان الراعى الأكبر للشعب ، وفى نفس الوقت القائد للأكليروس .

وقد خلط البعض بين باسيليوس صديق ذهبى الفم ، وبين باسيليوس الكبير أسقف قيصرية فى كبادوكية ، الذى كان يكبر ذهبى الفم بخمسة عشر عاما . وخلط البعض الآخر بينه وبين باسيليوس أسقف سلوكية الذى كان اقل منه سنا . وفى الحقيقة لا نعرف شيئا عن باسيليوس أكثر مما كتب فى هذا المقال . وان كان يظن أنه هو باسيليوس أسقف رافانيا فى سوريا ، التى لا تبعد كثيرا عن انطاكية ، وهو الذى حضر مجمع القسطنطينية فى ٣٨١م .

الكتاب الأول

١ ـ باسيليوس يفوق كل أصدقاء ذهبى الفم .

٢ ـ ترابط باسيليوس وذهبى الفم ، ودراستهما المشتركة فى كل المواضيع .

٣ ـ اختلافهما بخصوص الاتجاه نحو حياة الرهبنة .

٤ ـ اقتراح المعيشة فى بيت مشترك .

٥ ـ توسلات المحبة من أم ذهبى الفم .

٦ ـ حيلة ذهبى الفم فى موضوع الرسامة .

٧ ـ باسيليوس يتهم ذهبى الفم بالخداع ، وآخرون يتهمونه بالكبرياء والمجد الباطل .

٨ ـ دفاع ذهبى الفم ردا على الاعتراضات وحديثه عن فائدة الحيلة اذا كان توقيتها سليما .

ـ ١ ـ

كان لى كثيرون من الأصدقاء المخلصين الحقيقيين ، الذين ادركوا اصول الصداقة وسلكوا فيها بأمانة . ولكن بين هذا العدد الكبير كان واحد يفوقهم جميعا فى التصاقه بى .

كان واحدا من الذين يقفون دائما بجانبى ، كنا مرتبطين معا فى ذات الدراسات ، وعلى أيدى نفس الأساتذة(١) . لنا نفس الحماس والغيرة فى دراستنا التى كنا نقوم بها ، ورغبة حارة بنفس القوة عند كلينا ، نتجت عن الظروف الواحدة ، ولم يكن هذا فقط عندما كنا ملتحقين بالمدرسة ، ولكن حتى بعد أن غادرناها . وعندما كان لزاما علينا أن نختار الطريق الأمثل الذى ينبغى ان نسلكه ، وجدنا انفسنا ان لنا نفس التفكير .

ـ ٢ ـ

وبالاضافة الى هذا ، كانت هناك عوامل أخرى حفظت لنا توافقنا سليما ثابتا . فبالنسبة لعظمة النشأة ، لم يكن لاحدنا ما يستحق أن يتعالى به على الآخر . فلم اكن مفرطا

---

(١) أندروجانيوس فى الفلسفة وليبانيوس فى البلاغة

فى الغنى ، ولا كان هو موغلا فى الفقر . ولكن كما اتفقت امزجتنا ، هكذا أيضا مواردنا . وكانت عائلاتنا من طبقة واحدة ، لذا فقد كان كل شىء يتوافق مع ميولنا .

— ٣ —

ولكن لما كان أمامنا أن نسلك طريق الرهبنة المقدس ؛ والفلسفة الحقيقية(٢) ، اختل ميزاننا ، فبينما نما هو جدا فى حياته ، كنت — وأنا منغمس فى شهوات العالم — مشدودا بها الى أسفل ، ومثقلا بطياشة الشباب . وفى الأيام التالية ظلت صداقتنا فى الواقع ثابتة كما كانت من ذى قبل ، ولكن أحاديثنا توقفت . لأنه لم يكن ممكنا لأشخاص ليس لهم الاهتمام الواحد ، أن يقضوا معا وقتا طويلا . ولكن حالما بدات أخرج قليلا عن طوفان العاليات ، استقبلنى بذراعين مفتوحتين . ولكن حتى هذا لم يكن كافيا لأن نصل الى التوافق الأول اذ رغم أن المبادرة كانت منى أولا ، وقد اظهرت حماسا كبيرا ، الا أنه ارتفع هو فوق مستواى ، وحلق الى علو شاهق .

---

(٢) تعبير استعمله ذهبى الفم كثيرا بمعنى الحياة المكرسة للتأمل والدرس .

— ٤ —

واذ كان رجلا صالحا ، يقدر صداقتى كل التقدير ، فصل نفسه عن الباقين (باقى الاخوة) ، وقضى كل وقته معى ، الأمر الذى كان يود أن يعمله من قبل ، ولكن طياشتى عاقته كما ذكرت . لأنه كان مستحيلا على انسان تردد على ساحات القضاء ، وكان فى قمة الاضطراب من ملذات العصر ، ان يكون دائما فى صحبة رجل منكب على كتبه ؛ لم يضع قدمه فى السوق مطلقا . وبالتالى عندما زالت العوائق ، ونقلنى الى نفس الظروف التى كان يعيشها ، اطلق العنان لرغبته التى طالما كان يسعى اليها . فلم يحتمل أن يتركنى لحظة ، بل أخذ يحثنى دائما أن يترك كل منا بيته ، لنسكن معا فى مسكن واحد . والحق انه اقنعنى ، وبدا الأمر يأخذ طريقه الى التنفيذ .

— ٥ —

ولكن نحيب أمى المستمر عاقنى عن أن أحقق له هذه الرغبه ، او بالأحرى أن اقبل من يديه هذه العطية . لأن أمى عندما علمت أنى افكر فى هذا المشروع أخذتنى الى حجرتها الخاصة ، وجلست بجانبى على السرير الذى ولدتنى

فيه ، وذرفت سيلا من الدموع ، أضافت اليها كلمات تستحق الرثاء اكثر من بكائها(٣) .

— ٦ —

هذه الكلمات وغيرها التى قالتها لى امى ، رويتها لهذا الشاب النبيل . ولكن رغم انه لم يغلق قلبه دون هذه الكلمات ، الا انه ظل يحبذ رغبته الأولى .. وبينما نحن على هذا الوضع ، هو لا يكف عن طلبه ، وأنا ارفض الموافقة ، اذ بنا ننزعج لخبر يصلنا فجأة أننا على وشك أن نرشح لرتبة الأسقفية ، وحالما سمعت هذا انتابنى ذعر وحيرة . ذعر لئلا أمسك بغير ارادتى ، وحيرة متسائلا كما كنت دائما : متى بدرت هذه الفكرة عنا الى عقول هؤلاء الناس ؟!! فانى اذا نظرت الى نفسى لا أجد فى شيئا يستحق هذه الكرامة ..

---

(٣) يستطرد ذهبى الفم فى وصف الحديث الطويل الذى كانت أمه ترجوه فيه ألا يتركها الى حياة الوحدة ، وتذكره أنها ترملت فى سن مبكر ، وتحملت مشاق المسئولية منذ حداثة سنها ، وانفقت عليه كل ماتملك ، وفى كل هذا كانهو (ذهبى الفم) ، عزاءها الوحيد . وكل ماطلبته مقابل هذا ، هو ألا يدفعها الى ترمل ثان ، ولا يجدد أحزانها ... ثم وعدته أن توفر له كل أسباب الخلوة والدراسة كما يريد .

ثم جاء هذا الشاب النبيل الى خفية ، وتحدث معى عن هذه الأمور ، كأنه يجهل الأمر ، متوسلا أن نوجه أعمالنا ومشورتنا ، فى هذه الآونة كما كنا من ذى قبل ، بطريقة واحدة ، فهو على استعداد أن يتبعنى فى أى طريق أسلكه ، سواء حاولت الهروب أو قبلت أن أكون أسقفا .

وعندما ادركت غيرته ، واعتبرت أنى سوف أسبب خسارة للكنيسة كلها اذا كنت ، بالنظر الى ضعفى الشخصى ، أحرم قطيع الكنيسة من شاب صالح ومؤهل تماما لرعاية أعداد ضخمة ، رفضت أن أصرح له بما ضمرته، رغم أنى لم أخف عنه شيئا من أفكارى قبلا .

أخبرته انه من الأفضل أن نؤجل قرارنا بالنسبة لهذا الأمر الى وقت آخر ، طالما انه ليس أمرا عاجلا . وبهذا أقنعته أن يبعد هذا الموضوع من تفكيره ، وفى نفس الوقت بذرت فيه الأمل أنه اذا حدث لنا شىء مثل هذا ، فسوف أكون معه فى نفس الاتجاه .

ولكن بعد وقت قصير ، عندما حضر الشخص المكلف برسامتنا ، ظللت مختفيا ، أما باسيليوس ، جهلا منه بهذا ، فأخذوه ووضعوا عليه النير لكنه كان يأمل ، طبقا لما أعطيته من وعود ، أننى سوف الحقه بالتأكيد ، بل كان يفترض بالحرى أنه هو الذى سوف يتبعنى ، وذلك لأن

بعضا من الحاضرين الذين رأوه يجاهد الا يمسكوه ، خدعوه عندما تساءلوا بتعجب : كيف أن الشخص الذى اشتهر بحدة الطبع (قاصدين اياى) قد خضع بهدوء لحكم الآباء ، بينما هو الذى يعتبر رجلا أكثر حكمة وهدوءا ، يبدو هكذا عنيدا ومتكبرا بتمرده وجموحه ومقاومته(٤) .

ولما استسلم ، ثم علم فيما بعد أنى نجحت فى الهروب ، حضر الى فى حزن عميق وجلس بجوارى وحاول أن يتكلم، ولكن أفكاره الحزينة عاقته ، ولم يستطع أن يعبر بالكلام عما قاساه من عنف ، ولما فتح فاه لم يقو على النطق ، لأن الحزن كان يحبس كلماته قبل أن تصل الى شفتيه . وعندما رأيت دموعه واضطراب حاله ، ضحكت بكل فرح ، لأنى أعرف السبب ، وامسكت بيده اليمنى وقبلته ، وشكرت الرب ان خطتى قد انتهت بالنجاح كما كنت أصلى

(٤) كانت الرسامة بالارغام شائعة فى الكنيسة فى ذلك الوقت ، فالقديس اوفسطينوس جروه أمام الاسقف وهو يبكى وطلبوا رسامته . والقديس مارتينوس سحبوه من ثلاثيته وأخذوه للرسامة تحت الحراسة . وظلت صورة التمنع من الرسامة تقليدا فى الكنيسة القبطية فكان المنتخب لكرسى الاسكندرية يؤتى به الى القاهرة مربوطا بالسلاسل ، كأنما ليمنعوه من الهروب .

دائما . ولكنه لما رآنى مبتهجا ومتهللا بالفرح ، وادرك اننى قد خدعته ازداد ضيقا وغما .

- ٧ -

ولما هدأ بادرنى قائلا : اذا كنت قد رفضت النصيب الذى عين لك دون أن تولينى اى اعتبار ، فكان يجب على الأقل ان تعمل حسابا لسمعتك الشخصية ، ولكن الذى حدث انك بهذا العمل أطلقت عليك السنة الجميع ، فالعالم يقول انك تركت هذه الخدمة حبا فى المجد الباطل(٥) . ولكنى خجلت ان أقول لهم انى لم اكن أعلم انك تدبر هذه الخدمة منذ زمن طويل ، لئلا يقال أن صداقتنا كانت مظهرية فقط ..

ولكن كيف يمكن ان تحتمل الفضيحة المقبلة ؟ فالبعض يتهمونك بالكبرياء ، والآخرون بالمجد الباطل . والذين يترفقون فى اتهامنا ، يصفوننا بهاتين الرزيلتين ، ويضيفون اننا قد أهنا الذين صنعوا معنا كرامة رغم أنهم يستحقون هذه الاهانة اذا لحقتهم ، لأنهم تركوا كثيرين من الرجال

(٥) رأينا أن نستغنى عن عبارات كثيرة من هذه الفقرة تجنبا للاستطراد والاطالة ، مع وضع النقط مكان العبارات المحذوفة . (المترجم) .

المناسبين وقدموا الى هذه الكرامة شبابا(٦) . كانوا حتى الأمس منغمسين فى اهتمامات هذا العالم .. قل لى ان كان هناك عذر مقبول أقدمه لهؤلاء الذين يتهموننا ..

— ٨ —

ذهبى الفم : فقلت له : فلتطب نفسك ، لأنى لست على استعداد ان أجيب عن نفسى فى هـــذه الأمور فحسب بل ايضا سأحاول على قدر الامكان ان أجيب حتى عن هـذه الأشياء التى لم تطلب منى الاجابة عنها ..

انه لغباء غريب منى أن أفكر فقط فى مديح العـــالم الخارجى ، وأبذل جهدى فى تفنيد اتهاماتهم ، فى حين انى اجد نفسى عاجزا عن ان اقنع أعز أصدقائى أنى لم أخطىء اليه ، أو اننى أعامله بلا اكتراث مقابل ما أظهر لى من غيرة نحوى ...

ترى ما هو الخطأ الذى ارتكبته فى حقك ؟.

هل هو لأنى خادعتك وأخفيت عنك غرضى ؟ ولكنى فعلت

---

(٦) كان ذهبى الفم فى حوالى الثامنة والعشرين من عمره فى ذلك الوقت . وقد حدد مجمع قيصرية الجديدة (حوالى سنة ٣٢٠ م) سن الثلاثين على انه السن المناسب للكهنوت . وهو نفس السن على الاقل بالنسبة للأسقف ، ولو ان بعض الأساقفة سيموا فى اقل من هذا السن .

هذا لفائدتك أنت يامن خدعتك ، ولفـائدة الذين سلمتك اليهم عن طريق هذا الخداع . لأنه اذا كان الخداع شرا مطلقا ، وليس من الصواب أن نسـلك فيـه ، فانى على استعداد أن أتحمل أية عقوبة ترضيك ..

ولكن ان لم يكن هذا الأمر ضارا باستمرار ، بل يعتبر نافعا أو ضارا بحسب نية الذين يفعلون ، لذا يجب أن تكف عن شكواك من خداعى لك .. لأن الحيلة فى وقتها المناسب، وبقصد مستقيم لها فوائدها .

واذا فحصت تاريخ القادة الذين تمتعوا بسمعة عظيمة منذ أقدم العصور ، سوف تجد أن معظم انتصاراتهم قد أحرزوها بالخدعة ، وأنهم نالوا اعجـــابا أكثر من الذين ينتصرون بالحرب المباشرة ... لأن الآخـــرين يزودون معسكراتهم بالكثير من المال والرجال لذا فانهم لا يفيـدون شيئا من انتصارهم ، ولكنهم يعانون من الخسائر مايعانيه المنهزمون اذ يضحى كلاهما بالجيوش ، ويتكبد النفقات . والى جانب هذا ، فانهم لا يفرحون بكل أمجاد النصر .. لأن المنهزمين يشعرون فى أنفسهم أن هزيمتهم مادية فقط . أما الذى يستطيع أن يحرز النصر عن طريق الحيلة فانه يورط العدو لا فى كارثة فقط بل فى سخرية أيضا .

أمر آخر لا يقل أهمية هو أنهم يحتفظون للدولة بانتصار

حقيقى ، لأن الكثرة فى العتاد والوفرة فى الرجال ليست مثل القدرة العقلية ، فاذا استخدمت الأولى فى الحرب ، فانها بالضرورة سوف تستهلك ولا تعود تنفع بشىء أما طبيعة الحكمة فانها تزداد كلما نستعملها .

وحاجتنا الى الحيلة ليست فقط فى أوقات الحرب بل أيضا فى أوقات السلم ، ليس فقط فى شئون الدولة بل أيضا فى الحياة الخاصة ، فى تعامل الزوج مع زوجته ، والزوجة مع زوجها ، والابن مع أبيه ، والصديق مع صديقه ، والأولاد مع والديهم . فما كان يمكن لابنة شاول أن تخلص زوجها من يد أبيها(٧) الا عندما خدعته ، وعندما اراد أخوها أيضا أن ينقذه مرة اخرى من الخطر عاد ليستخدم سلاح الزوجة ذاته .

باسيليوس : ولكن واحدة من هذه الحالات لا تنطبق على . لأنى لست عدوا ، ولا واحدا من هؤلاء الذين يحاولون أن يوقعوا بك الضرر ، بل على النقيض ، فقد أخضعت كل أمورى لرأيك ، وكنت دائما أطيع كل ماتشير به على .

---

(٧) ١ صموئيل ١٩ : ١٢ — ١٨

ذهبى الفم : ولكن ياسيدى القدير المحبوب ، ان هذا هو نفس السبب الذى جعلنى أحرص أن أقول أنه كان من الصالح أن أستخدم هذا الصنف من الاحتيال ، حتى فى معاملة الأصدقاء والأعزاء . والدليل على هذا أنك اذا ذهبت الى أحد الأطباء،وسألتهم كيف يعالجون المرضىمن أمراضهم فانهم يخبرونكأنهم لا يعتمدون على مهارتهم الفنية فحسب، بل أحيانا يقودون مرضاهم الى الصحة باستخدام الحيلة ، ويستعينون بها مع فنهم .

واذا سمحت لى فسوف أقص عليك مثلا واحدا من امثلة كثيرة فى الخداع ، سمعت أن أهل الطب استخدموها.

رجل انتابته فجأة حمى خطيرة جدا ، وارتفعت حرارته جدا ، ولكن المريض رفض العلاج الذى يمكن أن يخفض درجة الحرارة ، والح فى طلب جرعة من الخمر متوسلا الى الجميع أن يقدموها له ، ويمكنوه من اشباع هذه الرغبة القاتلة — أقول قاتلة ، لأنه لو استجاب أحد لهذا الطلب فان هذا لا يسبب زيادة الحمى فحسب ، بل يقود الى الجنون .

عندئذ عندما فشلت المهارة الفنية ، هنا تدخلت الخدعة ... أحضر الطبيب اناء فخاريا أخرجه للوقت من الفرن وغمسه فى الخمر،واخرجه فارغا ثم ملأه بالماء ، وأمر باظلام

الحجرة التى يرقد فيها المريض بالستائر حتى لا يفضح الضوء حيلته ، ثم قدم له الاناء ليشرب مدعيا أنه مملوء بخمر خالصة . وقبل أن يتناوله الرجل بكلتا يديه ، خدعته الرائحة ، ولم يتمهل ليختبر ما قدموه له بل أقتنع بالرائحة، وخدع بالظلام ، فتجرع الكأس بلهفة ، ولما ارتوى بها تخلص فى الحال من احساسه بالاختناق ، وأنقذ من الخطر الذى كان على وشك الحدوث . الا ترى ميزة الخداع ؟

واذا أراد أحد أن يحصى حيل الأطباء لاستطالت القائمة بلا حدود . وليس فقط الذين يعالجون الجسد بل أيضا الذين يعالجون الروح قد نجدهم دائما يستخدمون هذا العلاج . فبولس المبارك ، لكى يستميل شعب اليهود(٨) ختن تيموثاوس(٩) ، رغم أنه حذر الغلاطيين فى رسالته(١٠) أن المسيح سوف لا ينفع الذين اختتنوا شيئا . لهذا السبب أطاع الناموس رغم أنه حسب البر الذى فى الناموس خسارة ، بعد نوال الايمان بالمسيح(١١) لأن فوائد الحيلة كثيرة الا اذا كانت بنية شريرة .

وفى الحقيقة أن عملا من هذا النوع لا ينبغى أن يسمى خداعا ، بل هو نوع من التصرف الحسن والنبوغ والمهارة

---

(٨) أعمال ٢١ : ٢٦ (٩) أعمال ١٥ : ٣
(١٠) غلاطية ٥ : ٢ (١١) فيلبى ٣ : ٧

القادرة أن توجد السبل حين تفشل الحيل ، وتجد مخرجا لما يعجز عنه الفكر . لأنى لا أسمى فينحاس قاتلا ، رغم أنه قتل اثنين بضربة واحدة(١٢) ، ولا ايليا ، بعد أن قتل مائة جندى مع قوادهم(١٣) ، وأراق بحرا من الدماء ، عندما قتل هؤلاء الذين عبدوا الشياطين(١٤) . لأنه اذا جاز لنا أن نقبل أن نختبر الأفعال مجردة فى ذاتها بعيدة عن نية فاعليها ، لأمكن لأحد — اذا أراد — أن يحكم على ابراهيم بجريمة قتل طفل(١٥) ، ونتهم كل من حفيده(١٦) وسليله بالشر(١٧) والغدر ، لأن الأول اخذ البركة ، والثانى حول ثروة المصريين لجماعة بنى اسرائيل . ولكن ليس الوضع كذلك بل لنستبعد هذه الفكرة الظالمة ، لأننا لسنا نعفيهم من الملامة فحسب ، ولكننا نعجب بهم لأجل هذه الأمور . والله أيضا يمدحهم لأجلها . لأن الرجل الذى يجب أن يسمى محتالا بحق هو الذى يستعمل هذا الأمر لغرض شرير ، وليس الذى يفعله بقصد صالح . بل كثيرا ما يكون من اللازم أن نستخدم الحيلة ، ونحقق بها أكبر قدر من الفائدة ، فى حين أن الذى يسلك طريقا مستقيما قد يصيب الشخص الذى لم يخدعه بضرر كبير .

---

(١٢) عدد ٢٥ : ٧ (١٣) ٢ ملوك ١ : ٩ — ١٢
(١٤) ١ ملوك ١٨ : ٣٤ (١٥) تكوين ١٧ : ٣
(١٦) تكوين ٢٧ : ١٩ (١٧) خروج ١١ : ٢

الكتاب الثاني

١ ـ الكهنوت هو اعظم دليل على محبة المسيح .

٢ ـ خدمة الكهنوت أعظم من اى خدمة أخرى .

٣ ـ الكهنوت فى حاجة الى نفس متسعة وسامية .

٤ ـ وهو مملوء بالكثير من المصاعب والمخاطر .

٥ ـ ذهبى الفم تجنب هذه الوظيفة لمحبته فى المسيح .

٦ ـ اظهار فضيلة باسيليوس وحبه الملتهب .

٧ ـ ذهبى الفم لم يقصد اهانة ناخبيه عندما تجنب الرسامة .

٨ ـ بهروبه خلصهم من اللوم .

- ١ -

يمكننا ان نبرهن بالدليل القاطع أنه من الممكن المخادعة لأجل هدف صالح ، أو على الأصح لا تسمى خدعة فى مثل هذا الظرف ، بل هو نوع من التصرف الحسن جدير بكل اعجاب . ولكن طالما أن ما قيل كاف للتوضيح فانه مما يجلب الملل والضيق أن أطيل حديثى فى الموضوع . والآن بقى عليك أن تثبت اذا كنت لم استخدم هذه الحيلة لفائدتك .

باسيليوس : وما هى الفائدة التى كسبتها من وراء هذا التصرف الحسن ، أو السياسة الحكيمة ، أو سمها كما يحلو لك أن تسميها ؟!!

ذهبى الفم : أى فائدة ، سيدى ، يمكن ان تكون أعظم من أن تعمل تلك الأمور التى أعلنها المسيح بشخصه أنها علامات المحبة له(١) ؟ فهو يخاطب الرسول قائلا : « بطرس أتحبنى ؟ » ولما اعترف أنه يحبه أكمل الرب قائلا « ان كنت تحبنى ارع غنمى » وقد سأل السيد التلميذ كذلك لا لكى يعرف (لأنه فاحص قلوب جميع الناس) ولكن لكى

---

(١) يوحنا ٢١ : ١٥ ـ ١٧

يعلمنا عظم اهتمامه بتدبير أمر هذه الخراف . واذ يتضح لنا هذا ، سيظهر لنا بطريقة مماثلة أن جزاءا عظيما لاينطق به سوف يعطى للذين يهتمون بهذه الخراف التى يقدرها المسيح تقديرا كبيرا . لاننا عندما نرى أحدا يهتم بأفراد بيتنا أو شعبنا ، فاننا نعتبر اهتمامه بهم علامة محبة لنا ، مع أن ذلك يمكن تقديره بالمال . فبأى مجازاة اذن يجازى هؤلاء الذين يرعون قطيعه الذى اشتراه لا بالمال ولا بشيء آخر بل بموته ، باذلا دمه كثمن للقطيع . لذلك عندما قال التلميذ « يارب أنت تعلم انى أحبك » ، واستشهد بالمحبوب نفسه كشاهد على حبه ، لم ينه المخلص حديثه ، بل أكمل موضحا علامة الحب . لأنه فى هذا الوقت لم يرد أن يبين مقدار حب بطرس الكثير ولكن مقدار حبه هو لكنيسته ؛ وأراد أن يعلم بطرس ويعلمنا جميعا أن نكون غيورين لنفس الهدف ، لأنه لماذا لم يشفق الرب على ابنه الوحيد(٢) بل اسلمه رغم انه وحيده ؟ ذلك لكى يصالح لنفسه الذين كانوا معتبرين أعداء له ويجعلهم شعبه الخاص .

لأنه لماذا سفك دمه ؟ ذلك لكى يربح هذه الخراف التى عهد بها الى بطرس ومن بعده . لذلك قال الرب « من هو العبد الأمين

(٢) رومية ٨ : ٣٢ ، يوحنا ٣ : ١٦

الحكيم الذى يقيمه سيده على خدمه »(٣) مرة اخرى تيقن هذه الكلمات وكان قائلها فى شك؛ الا أنه لم ينطقها شاكا ولكنه أراد أن يسأل بطرس ان كان يحبه ، لا لكى يعرف مشاعر التلميذ ، ولكن رغبة فى أن يظهر عمق حبه الفائق . نفس الوضع عندما يقول « من هو العبد الأمين الحكيم » فانما يقولها ليس جهلا منه بمن هو الأمين الحكيم ، ولكن رغبة فى أن يعلن أن مثل هذا الشخص نادر ووظيفته سامية . فتأمل مدى عظمة المكافأة ، لأنه يقول « انه يقيمه على جميع أمواله »(٤) .

- ٢ -

هل لازلت تشك فى أننا أخطأنا اليك عندما قدمناك لترعى رعية الله ، وتقوم بالعمل الذى طلبه الرب من بطرس تعبيرا عن محبته التى فاقت محبة بقية التلاميذ عندما قال له « يا بطرس ، اتحبنى أكثر من هؤلاء ؟ ارع غنمى » ..

كان يمكن أن يقول له : « ان كنت تحبنى مارس الصوم ، والنوم على الأرض ، والسهر الطويل ، دافع عن

(٣) متى ٢٤ : ٤٥

(٤) متى ٢٤ : ٤٧

المظلومين ، كن أبا لليتيم وللأرملة عوض زوجها ... ولكن الحقيقة أنه ترك كل هذا جانبا وقال « ارع غنمى » . لأن كل الأشياء التى ذكرتها سابقا يمكن أن يقوم بها كثيرون من المرؤوسين ، وقد تقوم بها النساء أيضا ، ولكن عندما يطلب من شخص أن يقود الكنيسة وتوكل اليه رعاية هذه النفوس الكثيرة ، فان جميع النساء ، وأكثر الرجال ، يجب أن يتراجعوا أمام عظمة العمل ، حينئذ يتقدم من علت منزلتهم الروحية على الباقين ، وفاقت فضائلهم الكثيرين كما كان شاول (٥) يعلو كل الشعب العبرانى فى البنية الجسدية ، بل وأكثر من هذا ، لأنى فى هذه الحالة لن أتخذ طول القامة مقياسا بل ليكن الفارق بين الراعى ورعيته بمقدار مابين الانسان العاقل والمخلوقات غير الناطقة ان لم يزد ، لأن المخاطرة المطلوبة تتصل بأمور لها أهمية عظمى . لأن خطر رعاية غير الناطقين ليس بعظيم ، فان من أضاع غنمه سواء بافتراس الذئاب أو سرقة اللصوص أو تفشى مرض الطاعون أو أى كارثة أخرى ، ربما يجد نوعا من التساهل من صاحب القطيع . وان أراد صاحب القطيع تعويضا فان التعويض هنا يكون ماديا ، ولكن من يؤتمن على بشر هم خراف المسيح الناطقة ، فعليه أولا احتمال عقوبة

(٥) ١ صموئيل ١٠ : ٢٣

ضياع الخراف ، عقوبة تفوق الأمور المادية ، عقوبة تمس حتى نفسه ، وعليه ثانية أن يخوض صراعا أعظم وأقسى ، لأن مصارعته ليست مع ذئاب أو لصوص وليس اهتمامه من اجل حماية القطيع من الوباء . اذن مع من عليه أن يحارب ؟ ومع من يتصارع ؟ استمع لكلمات الرسول بولس : « مصارعتنا ليست مع دم ولحم بل مع الرؤساء ، مع السلاطين ، مع الولاة على ظلمة هذا العالم ، مع أجناد الشر الروحية فى السماويات (٦) »

ارأيت جمعا مخيفا من الأعداء ، بجحافلهم المفترسة متسربلين لا بصلب أو فولاذ بل بطبيعة هى فى ذاتها تعادل عدة كاملة للحرب ؟ أتريد أن تشاهد جيشا آخر قويا وقاسيا يحاصر هذا القطيع ؟ هذا أيضا تراه بنفس النظرة لأن الذى حذرنا من أولئك الأعداء هو ذاته الذى أوضح لنا هؤلاء الأعداء الأخر ، اذ يقول فى موضع آخر : « أعمال الجسد ظاهرة التى هى زنا عهارة نجاسة دعارة عبادة أوثان ، سحر عداوة خصام غيرة غضب شقاق (٧) مذمات نميمات تكبرات تشويشات (٨) . وأشياء غيرها كثيرة .. لأنه لم يحصر قائمة كاملة بل تركنا لنفهم البقية .

(٦) أفسس ٦ : ١٢

(٧) غلاطيه ٥ : ١٩ ، ٢٠

(٨) ١ كورنثوس ١٢ : ٢٠

فوق هذا ففى حالة رعاية المخلوقات غير العاقلة ، نجد ان الذين يريدون اختطاف القطيع واهلاكه ، متى نظروا الحارس هاربا منهم بعيدا يكفون عن الحرب معه ويكتفون بالاستيلاء على القطيع . ولكن فى هـــذه الحالة ، حتى عندما يسلبون القطيع كله ، لا يتركون الراعى بلا محاربة بل يهاجمونه أكثر ، ولا يكفون عن مهاجمته حتى يطرحونه أو ينتصر هو عليهم .

أيضا آلام الغنم ظاهرة : ان كانت مجـــاعة او وباء او جراحات أو اى شيء مما يضايقها . وسهولة ظهور الأمراض يساعد كثيرا فى علاجها . بل هناك عنصر آخر ابلغ فى سرعة علاجها من الأمراض ، وهو ان الرعاة لهم سلطان أن يرغموا الخراف على تقبل العلاج متى رفضته ، لأنه من السهل أن يربطوها ان دعت الحاجة الى كيها أو قطع أحد أعضائها ، او يحبسوها داخل الحظيرة لفترة طويلة ان لزم الأمر ، او يقدمون اليها نوعا من لطعام دون الآخر ، أو يمنعون عنها الماء ... وكل مايرونه ضروريا لشفائها فانهم يتممونه بكل سهولة .

— ٣ —

اما فى حالة الأوجاع البشرية فانه : أولا ليس من السهل على الانسان أن يشخصها . لأنه لا « لايعرف امور الانسان الا روح الانسان الذى فيه » (٩) فكيف اذن يقدر اى واحد ان يصف علاجا لمرض لايعرف طبيعتـــه ؟؟ حتى لو اصبح المرض معروفا له فان مهمة العلاج تكون شاقة ، لانه ليس من السهل على الطبيب أن يعالج الجميع بنفس السلطان الذى يتعامل به الراعى مع غنمه . فقد يحتاج العلاج الى ربط المريض ، أو منعه من الطعام ، أو استعمال الكى أو المشرط ، كما أن قبول العلاج يتوقف على رغبة المريض لا الطبيب . وهـــذا ما ادركه الرجل العجيب (القديس بولس) عندما قال للكورنثيين « ليس اننا نسود على ايمانكم بل نحن موازرون لسروركم » (١٠) لأن المسيحيين — دون سواهم — لايسمح لهم أن يعالجوا الخطاة بغير ارادتهم .

ان قضاة العالم عندما يقبضون على فعلة الاثم بسلطة القانون يستعملون سلطانا عظيما ، ويمنعونهم من مواصلة شرورهم ولو رغم ارادتهم ، أما فى حالتنا فان الخاطىء يجب أن يصلح لا بالارغام بل بالاقناع ، لأننا لم نعط بالقانون

---

(٩) ١ كورنثوس ٢ : ١١

(١٠) ٢ كورنثوس ١ : ٢٤

سلطانا من هذا النوع لقمع الخطاة ، واذا أعطينا فلا يوج
المجال لنمارس فيه هذه القوة ، طالما ان الله يكافىء الذ
يمتنعون عن الشر باختيارهم وليس بالاجبار . لهذا كان
المهارة واجبة لكى نقنع مرضانا بقبول الدواء الذى يص
الأطبـاء الروحيون ، وليس هـذا فحسب بل ليـكون
شاكرين أيضا لمعالجيهم لأجل نعمة الشفاء ، لأنه ان قا
احد قيود العلاج (اذ فى سلطانه هذا) فقد صار مرض
افدح . وان لم يلق بالا للكلمات التى تقطع كالسيف فا
باستهانته يضيف الى جرحه جرحا آخر ويأتى العـلا
بنتائج اسوأ .

— ٤ —

ماذا على الراعى أن يفعل ؟ لأنك ان تعاملت بلطف
من يحتاج الى استعمال المبضع بعنف ، ولم تجرح بعم
من تستدعى حالته ذلك ، فكأنك تستأصل جانبا
الالتهاب وتترك الآخر . ومن ناحية اخرى فانك ان قم
بالاستئصال المطلوب بلا شفقة ، فان المريض اذ تقوده آلا
الى اليأس ، سوف يهرب دفعة واحدة من كل شىء ،
العلاج والأربطة معا ، ملقيا بنفسه الى الهلاك . « يكس
النير ويقطع الربط » (١١)

(١١) راجع ارميا ٥ : ٥

واستطيع أن اخبر عن كثيرين اندفعوا الى شرور أقبح عندما اخذوا العقاب الواجب على خطاياهم . لذلك عندما توقيع العقوبة لايجب علينا أن نقدرها بالنظر الى الخطأ فقط ، بل بالأحرى أن تضع فى الاعتبار استعداد الخاطىء ، لئلا وانت ترغب أن تصلح ما تمزق تجعل الخرق أردا ، واذ تعمل بحماس لتقيم الساقط ، تجعل سقطته اعظم . لان الأشخاص الضـعفاء والمتهاونين المنغمسين فى ترف العالم وملذاته ، والذين يملكون أسباب الجاه والتفاخر بالحسب والنسب — متى أخطأوا — يمكن اذا دعوناهم لى التوبة بلطف وأناة ان يقلعوا ، ولو جزئيا على الأقل ان لم يكن تماما ، عن خطاياهم التى تسلطت عليهم . أما اذا طبق احد عليهم القانون دفعة واحدة ، فانه سيحرمهم من هذه الفرصة للشفاء . لأن النفس اذا اضطرت مرة أن تنزع عنها الحياء فانها تتردى فى حالة قاسية ، فلا تلين لكلمات رقيقة ولا تخضع لتهديد ، ولا ينجح فيها علاج ، بل تؤول الى حال أردا من تلك المدينة التى وبخهـا النبى بقوله : « وجبهة امراة زانية كانت لك ، وابيت أن تخجلى من كل الناس »(١٢) .

لذلك فالراعى فى حاجة الى التدقيق الكثير ، وأن تكون

(١٢) راجع ارميا ٣ : ٣

له ربوة من العيون ليلاحظ كل نفس على سجيتها . لانه كما أن كثيرين يتعالون غرورا فيسقطون فى اليأس من جهة خلاصهم لعدم احتمالهم الأدوية الصعبة ، كذلك يوجد آخرون يسقطون فى الأهمال من جراء عدم تاديبهم بالعقوبة التى تتناسب مع اخطائهم ، ويصيرون الى حال اسوأ ، ويتعرضون السقوط فى خطايا أكبر . لذلك ينبغى على الكاهن أن يلاحظ هذه الأمور بدقة ، ويقدم العلاج الذى يراه مناسبا لئلا تضيع غيرته هباء . وليس فى هذا المجال فقط ، بل نرى أيضا أن الكاهن عليه ان يجاهد كثيرا فى ضم أعضاء الكنيسة المفصولين . لأن راعى الخراف يجب أن يتبعه قطيعه حيثما يذهب . فاذا حدث أن انحرف أحدهم عن الطريق المستقيم وترك المرعى الصالح ليغتذى من الأماكن الوعرة وغير المفلحة ، فان نداء عاليا كاف لارجاعه . ولكن اذا انحرف انسان عن الايمان الصحيح ، فان هذا يتطلب الكثير من الجهد والمثابرة والصبر ، لانه لايمكن ارجاعه بالقوة أو منعه بالتخويف بل العمل على عودته الى الحق الذى انحرف عنه بطريق الاقناع .

لذلك وجب أن يتمتع الراعى بروح عالية ، حتى لايفشل او ييأس من خلاص التائهين عن القطيع ، بل يقول فى نفسه دائما : « عسى أن يعطيهم الله توبة لمعرفة الحق

فيستفيقوا من فخ ابليس » (١٣) لذلك لما خاطب الرب تلاميذه قال لهم : « من هو العبد الامين »(١٤) لأن من يصلح ذاته فقط فانه يقتصر على منفعة نفسه ، بينما تمتد الرعاية لتشمل الشعب كله . ومن يوزع المال على المحتاجين او ينصف المظلومين فانه يفيد الآخرين الى حد ما ، وهذا عمل العلمانى ، ولكن عمل الكاهن يسمو عنه بمقدار سمو الروح عن الجسد ، لذلك ما أصدق قول الرب ان الغيرة على القطيع هى علاقة المحبة لشخصه !

ولكن انت ... الا تحب المسيح ؟

ذهبى الفم : نعم انى احبه ، وسوف لا أكف عن حبه ، لكنى أخشى أن اغضب من احب !

باسيليوس : ان كلامك هذا لغز كبير ، فالمسيح يطلب ممن يحبه ان يرعى خرافه ومع هذا فأنت تتجنب رعايتهم رغم انك تحب من اعطى هذا الأمر ...

ذهبى الفم : ان كلامى ليس لغزا ولكنه واضح جدا وبسيط ، لأننى لو كنت مؤهلا تماما لاداء هذه الخدمة كما

---

(١٣) تيموثاوس ٢ : ٢٥

(١٤) متى ٢٤ : ٤٥

يريدها المسيح ثم تهربت ، لكان كلامى موضع شك . ولكن طالما ان ضعفى يجعلنى غير نافع لهذه الخدمة فلماذا يكون كلامى محلا للتساؤل ؟ لانى أخشى اننى اذا تسلمت رعية المسيح وهى فى تمام النمو والشبع ثم لعدم كفاءتى اهلكتها ، فانى اجلب على نفسى غضب الله الذى احب القطيع واسلم نفسه لخلاصه وفدائه .

باسيليوس : ان هذه الكلمات تحزننى ، لانك لو كنت قد تخليت عن الخدمة لاحساسك بعدم كفائتك ، فانى أحوج منك ان اتخلى عنها ... لانك عشت معى واختبرتنى عن قرب ، فكيف انسقت وراء الرأى العام والقيت بى الى هذا الخطر الكبير ؟؟

ذهبى الفم : ان مثل هذه الامور تقتضى التحرى الكامل ، ومن يرشح احدا للكهنوت ينبغى الا يقنع بالرأى العام ، ولكن يجب عليه فوق كل شىء وقبل كل شىء أن يختبر اخلاق الرجل . فعندما قال الرسول بولس : « يجب ايضا ان تكون له شهادة حسنة من الذين هم من خارج » (١٥) لم يغفل اهمية الفحص الدقيق ... ولكن بعد حديث طويل

(١٥) اليموثاوس ٣ : ٧

ذكر هذه الشهادة ، مبرهنا ان الانسان لايقنع بها بمفردها فى مثل هذا الاختيار ، بل تؤخذ فى الاعتبار مع غيرها ، لأن الرأى العام غالبا لا يعبر عن الحقيقة ولكن اذا سبقه الفحص الدقيق فلا يأتى بضرر .

باسيليوس : ان هذا كلام يدينك ، لأنك سمعت منى كثيرا عن ضعفى وجبنى أمام الهموم العادية .

— ٥ —

ذهبى الفم : أذكر حقيقة انى كنت أسمع منك مثل هذا الكلام ولست أنكره ... ولكنى سأبرهن لك انك قلت هذه الأشياء من قبيل انكار الذات ، وليس توخيا للحقيقة ... والآن أقدم لك سؤالا : أتعلم مقدار عظمة المحبة وقوتها ؟ لأنه رغم كل المعجزات التى كان فى مقدور الرسل أن يصنعوها ، قال المسيح : « بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذى ان كان لكم حب بعض لبعض » (١٦) وقال بولس : « المحبة هى تكميل الناموس » (١٧) وانه فى فقدانها لا فائدة فى أى عطية روحية ، ولأن هذا هو النصيب الصالح (١٨) ، والعلامة المميزة لتلاميذ المسيح ، والعطية التى تسمو عن

(١٦) يوحنا ١٣ : ٣٥ (١٧) رومية ١٣ : ١٠

(١٨) أى ان اختيار الكهنوت هو بدافع محبة المسيح « اتحبنى .. ارع غنمى »

كل العطايا الأخرى .. وهذا ما أدركته انه مغروس فى روحك بعمق

- ٦ -

ملخص : ولما ادعى باسيليوس انه لم يبلغ الى تحقيق نصف ماتتطلبه وصية المحبة ، وبالتالى لايستحق أن يزكى للكهنوت ، ذكره ذهبى الفم بحادثة قديمة وجد فيها باسيليوس نفسه أمام زميل له اتهم زورا ، فلم يجد باسيليوس بدا من أن يضحى بنفسه لكى ينقذه ، منفذا وصية الرب « ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه » (١٩)

- ٧ -

ملخص : ينفى ذهبى الفم عن نفسه تهمة أنه أهان ناخبيه بامتناعه عن الكهنوت ، لأنه لايليق بأى انسان أن يهين من أرادوا أن يكرموه .

- ٨ -

ملخص : ثم يقول انه ، على النقيض ، قد أعتقهم من لوم الآخرين لهم اذا أوكلوا هذه المهام العظيمة لشاب جاهل مثله ...

---

(١٩) يوحنا ١٥ : ١٣

الكتاب الثالث

١ ـ الذين ظنوا انى تجنبت هذه الخدمة بسبب الكبرياء يسيئون الى سمعتهم .

٢ ـ لم أتجنب الكهنوت بسبب المجد الباطل .

٣ ـ لو كنت قد تطلعت الى المجد لأخترت بالاحرى هذا العمل

٤ ـ الكهنوت أمر رهيب ، والخدمة فيه فى العهد الجديد اكثر رهبة منه فى العهد القديم .

٥ ـ سلطان الكهنوت الكبير وكرامته .

٦ ـ الرتب الكهنوتية بين عطايا الله العظمى .

٧ ـ حتى بولس امتلأ بالخوف عندما تأمل عظمة الخدمة !

٨ ـ من يدخله (الكهنوت) يسقط غالبا فى فخ الخطية الا اذا كان له العقل الراجح .

٩ ـ انه يسقط فى المجد الباطل وثماره الشررة .

١٠ ـ ليس الكهنوت هو السبب فى هذه الشرور ولكنه ضعفنا نحن .

١١ ـ أن شهوة الرياسة ينبغى أن تنزع من نفس الكاهن

١٢ ـ ينبغى أن يكون الكاهن حكيما جدا .

١٣ ـ الى جانب الاحتمال الكبير هناك أشياء اخرى يجب توفرها فى نفس الكاهن .

١٤ ـ لاشىء يشوب نقاوة الفكر ويقظته اكثر من الغضب الأهوج .

١٥ ـ ذهبى الفم يشير الى صورة أخرى من الجهاد المملوء بالمخاطر .

١٦ ـ كم يجب أن يكون عظيما ، من عليه أن يواجه مثل هذه العواصف !

١٧ ـ ما أكثر المخاوف فى أمر تدبير امذارى !

ـ ١ ـ

ملخص : يتعجب ذهبى الفم كيف يتهمه الناس بالغرور لانه هرب من الكهنوت ، لأن هـذا الاتهام يدل على عدم تقديرهم الكافى لهذه الكرامة العظيمة . لأن المغرور لايهرب من هذا العمل الا اذا كان ينظر اليه باحتقار . وهـذا يسىء اليهم هم .. فلو لم تكن نظرتهم للكهنوت مثل نظرتهم الى اى عمل عادى ، لما خطر ببالهم أن يلصقوا به هـذه التهم .

ـ ٢ ـ

ملخص : يتابع ذهبى الفم دفاعه بقوله انه لو سـعى للشهرة لقبل الكهنوت ، حيث يرى الكل انهم فضلوه على كثيرين من الذين لهم جهادهم فى الخدمة ، فى حين انه ـ كما يقول هو عن نفسـه ـ شاب حديث السن ، لم يتخلص من اغراءات العالم الا من وقت قصير .

ـ ٣ ـ

ملخص : ثم يقول ان هؤلاء لو عرفوا حقيقة الكهنوت ومدى المسئولية الرهيبة بالنسبة للمرشح أو الناخبين لما اتهموه بالغرور ولا بالمجد الباطل .

- ٤ -

ان نعمة الكهنوت ، وان كانت فى الحقيقة تعطى على الأرض ، ولكنها تعد بين الرتب السماوية . وهـذا أمر طبيعى ، لانه لا انسان ، ولا ملاك ، ولا رئيس ملائكة ، ولا أى خليقة اخرى ، بل الباراقليط نفسه هو الذى أسس هذه الدعوة ، وحث البشر ، وهم بعد فى الجسـد أن يقوموا بخدمة الملائكة !! لذلك ينبغى على الكاهن الذى يقدس أن يكون طاهرا ، كما او كان واقفا فى السموات عينها فى وسط تلك القوات .

انها لمخيفة حقا ، ومغزاها رهيب للغاية هى هذه الأشياء التى كانت تستعمل قبل عهـد النعمة ، مثل الأجراس والرمانات والأحجار على الصدرة وعلى الافود (ثوب كهنة اليهود) والمنطقة والتاج والرداء الطويل وقسط الذهب وقدس الأقداس والسكون العميق فى داخله (١) .

ولكن اذا فحصنا الأشياء المختصة بعهد لنعمة سوف نجد أنها ، وان كانت قليلة ، ولكنها مخيفة ورهيبة حقا أكثر من مجد الناموس كما قيل « فان الممجد أيضا لم يمجد من هذا القبيل لسبب المجد الفائق » (٢)

---

(١) خروج ٢٨ : ٤ ومابليه (٢) ٢ كورنثوس ٣ : ١٠

فانت عندما ترى الرب ذبيحا وموضوعا فوق المذبح ، والكاهن واقفا يصلى على الذبيحة ، وكل المصلين مصطبغون بذلك الدم الثمين ، أتستطيع أن تقول انك لازالت بين الناس ، وانك واقف على الأرض !! ألست ـ على النقيض ـ قد انتقلت مباشرة الى السماء ، وطرحت عنك كل الأفكار الجسدية ؟! ألست بروح متحررة من الجسد ، وبفكر نقى تتأمل الأشياء التى فى السماء ؟!! آه ! ماهذا العجب ، وما مقدار حب الله للانسان ؟! ان الساكن فى الأعالى مع الآب هو فى هذه الساعة فى متناول الكل ، يعطى ذاته لمن يريدون أن يحتووه ويمسكوا به . وكل هـذا يتم بعين الايمان . هل ترى أن هذه الأشياء يمكن أن تحتقر ؟ أو يمكن لأى أحد أن يتشامخ عليها ؟!!

أتريد أن تعرف ، من معجزة أخرى ـ عظم قدسية هذه الرتبة ؟ تصور ايليا والجمع الغفير واقف حوله ، والذبيحة موضوعة على مذبح الحجارة ، وبقية الشعب قد صمتوا صمتا عميقا ، بينما النبى وحده يرفع الصلاة ، ثم نزول النار فجاة من السماء على الذبيحة : انها أمور عجيبة تمت فى رعب !!

والآن فلنتجاوز هذا المنظر الى الطقوس الحالية ، انها ليست عجيبة للنظر فحسب ولكنها أكثر رهبة . حيث يقف الكاهن لا لينزل نارا من السماء بل الروح القدس .

وهو يقـدم طلبـات طويلة لا لياتى لهيب من فوق ليلتهم القرابين ، ولكن لكى تضىء النعمة النازلة على الذبيحة نفوس الجميع ايضا فيتالقون أكثر من الفضة المصفاة بالنار . من يجرؤ أن يحتقر هذا السر الكلى الرهبة الا اذا كان مجنونا واحمق ؟!

اولا تعلم ان احدا من البشر لايستطيع أن يتحمل هذه النار فى الذبيحة ؟!! فلو لم تكن مساندة نعمة الله عظيمة لفنى الكل !!

— ٥ —

لأنه لو ادرك أى شخص كم هو أمر جسيم أن يتمكن شخص ، حال كونه انسانا ومحصورا فى اللحم والدم ، أن يقترب الى هذه الطبيعة المباركة الطاهرة ، فانه حينئذ سوف يرى بوضوح ماهى الكرامة العظيمة التى تمنحها نعمة الروح للكهنة ، اذ بواسطتهم تقام هـــذه الطقوس وغيرها ، التى لاتقل عنها بأى حال فيما يختص بمجدنا وخلاصنا .

فان الذين يسكنون الأرض ، ويقيمون فيها ، يؤتمنون على خدمة الأمور السماوية ويأخذون سلطانا لم يعطه الله للملائكة ولا لرؤساء الملائكة !! لأنه لم يخاطب أحدا منهم

بالقول « كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطا فى السماء. وكل ماتحلونه على الأرض يكون محلولا فى السماء » (١) .

ان حكام الأرض لهم فى الحقيقة سلطان ليربطوا ولـكن الجسـد فقط . فى حين أن هذا الربط يقع على الروح ويخترق السموات . وما يفعله الكهنة هنا على الأرض يصادق عليه الله من فوق ، وما ينطق به العبيـد يؤيده السيد !! لأنه فى الحقيقة سلطان سماوى لاشك ، ذلك الذى اعطاه الله لهم عندما قال : (من غفرتم خطاياه تغفر له . ومن امسكتم خطاياه امسكت) (٢) . أى سـلطان يمكن أن يكون أعظم من هذا ؟!! « الآب ... قد أعطى كل الدينونة للابن »(٣) ولكنى اراها كلها بين يدى هؤلاء الرجال بواسطة الابن ، لأنهم يؤهلون الى هذه الكرامة كما لو كانوا قد انتقلوا الى السماء ، وارتفعوا فوق الطبيعة البشرية ، وتحرروا من الأوجاع التى نحن عرضة لها .

زد على هذا ، اذا منح ملك هذه الكرامة لواحـد من رعاياه ، معطيا اياه سلطانا ليلقى فى السجن من يشاء ويطلق

---

(١) متى ١٨ : ١٨

(٢) يوحنا ٢٠ : ٢٣

(٣) يوحنا ٥ : ٢٢

سراح من يشاء ، فانه يصبح موضع حسد واحترام لجميع الناس ، أما الذى أخذ من الله سلطانا عظيما بمقدار ماتسمو السماء عن الأرض ، والروح عن الجسد ، فانه يبدو للبعض أنهم أخذوا كرامة ضئيلة حتى أنهم يمكن ان يتصوروا أن واحدا من الذين أؤتمنوا على هذه الامور يحتقر هذه العطية !! دعنا من جنون كهذا ! لأنه جنون واضح أن نحتقر هذه الكرامة العظيمة . اذ بدونها لايمكن أن نحصل على خلاصنا ولا على الأشياء الصالحة التى وعدنا بها الله . لأنه اذا كان أحد لايمكنه أن يدخل ملكوت السموات دون أن يولد من الماء والروح ، ومن لايأكل من جسد الرب ويشرب دمه يحرم من الحياة الأبدية ، واذا كانت هذه الأمور تتم فقط عن طريق هذه الأيدى المقدسة ، أعنى أيدى الكاهن ، فكيف يمكن لأى انسان ــ بدون هذه الأمور ــ أن يهرب من نار الجحيم أو يربح هذه الأكاليل المعدة للفائزين ؟!!

- ٦ -

هؤلاء هم الذين بالحقيقة أوتمنوا على آلام المخاض الروحى ، والميلاد الذى يجرى بالمعمودية . اننا بواسطتهم نلبس المسيح ، وندفن مع ابن الله ونصير أعضاء فى ذلك الرأس المقدس . فلا ينبغى أن نهابهم أكثر من الحكام والملوك فحسب ، بل نكرمهم أيضا اكثر من الوالدين . لأن

هؤلاء ولدونا من دم ومن مشيئة الجسد ، أما أولئك فهم وسيلة ميلادنا من الله ، ذلك الميلاد الثانى الذى هو الحرية الحقيقية والبنوة بالنعمة .

ولقد كان للكهنة اليهود السلطان أن يشفوا الجسد من البرص ، أو بالحرى لا يشفوها بل فقط يفحصون الذين تطهروا . وانت تعلم كم كانت وظيفة الكاهن موضوع منافسة فى ذلك الوقت . أما كهنتنا فقد أخذوا سلطانا ليس على برص الجسد بل على نجاسة الروح لا ليعلنوا أنها طهرت بعد فحصها بل لينزعوها بالفعل . لذلك فالذين يحتقرون هؤلاء الكهنة يستوجبون اللعنة أكثر من داثان وجماعته ، ويستحقون عقابا أشد قساوة . لأن أولئك رغم أنهم نسبوا لأنفسهم كرامة ليست لهم ، الا أنهم كانوا ينظرون اليه (الكهنوت) نظرة سامية . وقد برهنوا على ذلك بهذا الاشتياق الشديد الذى سعوا به اليه ...

أعود مرة أخرى الى النقطة التى بدأت منها : لقد منح الله للكهنة قوة أعظم من التى لوالدينا الجسديين ، فالفرق بينهما فى الواقع كبير كالفرق بين الحياة الحاضرة والحياة المستقبلة . لأن والدينا الجسديين ولدونا لهذه الحياة فقط ، أما أولئك فلتلك الحياة الآتية . الأولون ليس فى مقدورهم أن يمنعوا الموت عن أولادهم ، أو يصدوا عنهم هجمات المرض ، أما الكهنة فكثيرا ماخلصوا نفسا عليلة

أو انسانا على حافة الهلاك . يوقعون على البعض عقابا شديدا ، ويمنعون الآخرين من السقوط . ليس فقط بالتعليم والارشاد ولكن أيضا بمعونة صلواتهم . لأن سلطان غفران الخطايا ليس فقط ساعة الميلاد الثانى ، بل أيضا بعد ذلك لهم هذا السلطان فقد قيل « أمريض أحد بينكم فليدع قسوس الكنيسة فيصلوا عليه ويدهنوه بزيت باسم الرب ، وصلاة الايمان تشفى المريض والرب يقيمه ، وان كان قد فعل خطية تغفر له » (١) .

كذلك نجد ان الآباء الجسديين ، اذا حدث خلاف بين اولادهم وبين أحد من ذوى الرتب العالية فى العالم ، فلا يستطيعون ان يفعلوا لهم شيئا ، أما الكهنة فانهم يصالحونهم ، ليس مع الحكام والملوك بل مع الله نفسه عندما يحل غضبه عليهم .

- ٧ -

لم يحب احد المسيح كما احبه بولس ، ولا اظهر احد غيرة اعظم منه ، ولا حسب احد مستحقا لنعمه اكثر منه . ورغم كل هذه الامتيازات لايزال يتخوف ويرتعب أمام هذه المسئولية . انه يقول : « اخاف انه كما خدعت الحية

(١) يعقوب ٥ : ١٤ ، ١٥

حواء بمكرها هكذا تفسد اذهانكم عن البساطة التى فى المسيح » (١) . وأيضا : « أنا كنت عندكم فى خوف ورعدة كثيرة » (٢) .. وهو الرجل الذى اختطف الى السماء الثالثة ، وصار شريكا لأسرار الله التى لاينطق بها (٣) ، وتحمل ميتات كثيرة بعدد أيامه التى عاشها بعد أن آمن . وهو الرجل الذى لم يستعمل السلطان المعطى له من المسيح ، لئلا يثقل على أحد من الذين آمنوا على يديه (٤) . فاذا كان هذا الذى عمل باكثر من وصايا الله ، ولم يطلب أبدا نفعه الشخصى بل نفع الذين يرعاهم ، كان دائما هكذا مملوءا بالخوف عندما تأمل جسامة المسئولية ، فكيف يكون حالنا نحن الذين نسعى بشتى الطرق لنفع انفسنا ؟! . الذين لم نفشل فى أن نسلك باكثر من وصايا المسيح فحسب ، بل غالبا مانتعدى الكثير منها !! انه يقول : « من يضعف وانا لا اضعف ، من يعثر وانا لا التهب » (٥) ؟! .

هكذا يجب أن يكون الكاهن ! وليس هكذا فقط ، لأن

(١) ٢ كورنثوس ١١ : ٣
(٢) ١كورنثوس ٢ : ٣
(٣) ٢ كورنثوس ١٢ : ٤
(٤) ٢ كورنثوس ١١ : ٩ ، ١ تسالونيكى ٢ : ٩
(٥) ٢ كورنثوس ١١ : ٢٩

هذه أمور بسيطة اذا قورنت بما سأقوله ... انه يقول : « كنت أود أن أكون أنا نفسي محروما من المسيح لأجل اخوتي ، أنسبائي حسب الجسد » (٦) . اذا تجاسر أحد أن ينطق بهذا الكلام ... فانه يلام بحق اذا شرع في الهروب ، أما اذا كان أحد ينقصه هذا السمو مثلي ، فانه يستحق الكراهية ليس اذا تجنب هذه الخدمة بل اذا قبلها .

لأنه اذا كنا بصدد اختيار انسان لرتبة حربية ، والذين لهم حق الترشيح يرشحون نحاسا أو صانع أحذية أو واحدا من ذوي مثل هذه الحرف، ويضعون الجيش بين يديه، فاني لا ألوم هذا الانسان البائس اذا أخذ في الهروب ، وعمل كل ما في وسعه لكي يتجنب هذا الارتباك العظيم ..

فوق هذا ، اذا كلفت بقيادة سفينة تجارية بها بحارة كثيرون ، ومحملة بالبضائع الغالية ... فاني سوف أرفض هذا العرض فورا ... وذلك لئلا أغرق السفينة . اذن اذا كانت الخسارة مادية ، والخطر يمتد فقط الى الموت الجسدي ، فلا يلوم أحد هؤلاء الذين يتصرفون بحكمة ، ولكن ان كانت السفينة في طريقها الى السقوط، ليس في المحيط

(٦) رومية ٩ : ٣

ولكن في هاوية النار ، والموت الذي ينتظرها ليس هو انفصال الروح ولكنه الهلاك الأبدي ، فهل تغضب على لأني لم ألق بنفسي في شر عظيم كهذا ؟!!

- ٨ -

من أجل هذا أتوسل اليك أن تتركني وشأني ، فاني أدري بضعف نفسي وحقارتها ، وأدرك مقدار عظمة هذه الخدمة ومشقة العمل ... فالرياح التي تعصف بنفس الكاهن هي أشد من الأنواء التي تهيج البحر .

- ٩ -

ملخص : وأول هذه المصاعب هي صخرة المجد الباطل الخطيرة ، التي تعيش فيها حيوانات مفترسة كثيرة ، قادرة على أن تمزق حياة الانسان يوما بعد يوم . هذه الحيوانات المفترسة التي تتربى على المجد الباطل هي الغضب ، واليأس ، والحسد ، والخصام ، والنميمة ، والادانة ، والكذب ، والرياء ، والدسيسة ، والغضب دون وجه حق ، والفرح بأخطاء الزملاء ، والحزن لنجاحهم ، وحب المديح ، وشهوة الكرامة التي (في الواقع أكثر من غيرها) تقود النفس البشرية للهلاك ، والفتاوى الغاشة لارضاء النزوات ، واحتقار الفقراء ، وتملق الأغنياء وخوف العبيد ، والبعد عن صراحة الرأي ، ومجافاة الحق ، والاتضاع المصطنع ،

والامتناع من التبكيت والتوبيخ ، أو بالحرى استعمالهما بشدة مع الفقراء فى حين السكوت الكلى مع ذوى السلطان ... كل هذه الوحوش وغيرها ترعى فوق صخرة حب المديح ، وويل لمن يسقط فيها فانه يستعبد لها حتى يفعل مالايليق (١) .

— ١٠ —

هل الكهنوت مسئول عن هذه الشرور ؟ ان مثل هذا القول جنون !! فالرجل الحكيم لايتهم السيف بالقتل ، ولا الخمر بالسكر ، ولا القوة بالاغتصاب ، ولا الشجاعة بالتهور ، ولكن يلوم الذين يستخدمون مواهب الله استخداما سيئا فيجلبون على أنفسهم عقاب الله .

ان الكهنوت بكل تأكيد سوف يديننا ان لم نحسن استخدامه . فليس الكهنوت سببا فى تلك الشرور ، ولكننا نحن الذين ندنسه ونحقر من شأنه حين نعطيه لمن لا يستحقونه ، أو للذين يقبلونه سريعا دون أن يفحصوا ذواتهم ويدركوا جسامة هذه الرتبة ...

---

(١) أسهب ذهبى الفم فى وصف سلطة النساء وتدخلهن فى الخدمة ، وقد عانى هو نفسه كثيرا من اودوكسيا زوجة الامبراطور اركاديوس .

ترى من أين نشأت هذه المتاعب الكثيرة فى الكنائس ؟ انى أعتقد أن المصدر الوحيد لها هو الطريقة العشوائية فى اختيار الرعاة ، فالرأس يجب أن يكون أكثر أعضاء الجسم قوة حتى يضبط النزوات الشريرة التى تصدر من سائر أعضاء الجسد . ولكن اذا كان الرأس نفسه ضعيفا ، وعاجزا عن صد الهجمات الوبائية ، فانه يزداد ضعفا فوق ضعف ، وبهلاكه يهلك الجسد كله ...

وهناك صفات أخرى كثيرة يجب أن يتحلى بها الكاهن . فقبل كل شىء يجب أن يطهر نفسه تماما من شهوة الحصول على هذه الرتبة . لأنه اذا حدث أن اشتهى هذه الكرامة ، فانه حالما يصل اليها فان شهوة حب الكرامة تزداد اضطراما ، حتى اذا استعبد لها فانه يتردى فى شرور كثيرة مثل التملق والمداهنة ، ويخضع لأمور دنيئة ... وهذا هو سبب المذابح التى عمت الكنائس ، والخراب الذى حل بالمدن ، بسبب التشاحن على الرئاسة .

— ١١ —

ولا يظن أحد انى اعارض القديس بولس الرسول حين يقول : « ان ابتغى أحد الأسقفية فيشتهى عملا صالحا » (١ تى ٣ : ١) . فانى لا اقول ان اشتهاء الأسقفية امر ردىء ، ولكن الردىء هو رغبة التسلط وحب الرئاسة .

فهذه الشهوة هى التى ينبغى أن يرتفع الانسان عن مستواها ، ويطهر نفسه منها تماما ، والا يسمح لها من البداية أن تتسلط عليه حتى يكون حرا فى تصرفاته . ومن لا يشتهى سلطان هذه الخدمة فانه لا يخشى حرمانه منها ، وهكذا يستطيع أن يتصرف فى كل شىء بحرية مجد أولاد الله . أما الذين يرتعدون خوفا من أن يعزلوا من الكهنوت ، فهم يقاسون عبودية مرة تجرهم الى شرور كثيرة ، وتقودهم غالبا الى ما يغضب الله والناس .

لهذا ينبغى الا تقع النفس فى مثل هذه الأمور .. وكما انه فى الحروب نرى الجنود الشجعان يحاربون فى اصرار ويستشهدون فى شجاعة هكذا يجدر بمن نال هذه الخدمة أن يكرس حياته من أجلها او يتنحى عنها كما يحق للمسيحى ، علما أن التنحى لا يقل فى مجازاته عن الوفاء بالخدمة . لأنه متى تعرض كاهن لمثل هذا الموقف ويتنحى لكى يتجنب الخضوع لأمر لا يليق بكرامة هذه الخدمة فانه بتنحية يعاقب مقاوميه عقابا شديدا ، كما انه ينال هو أجرا عظيما .. لأن الكتاب يقول : « طوبى لكم اذا طردوكم وعيروكم وقالوا فيكم كل شر من أجلى كاذبين . افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم فى السموات »(١) . أن هذا فى

(١) متى ٥ : ١١ ، ١٢ .

الحقيقة هو حال من يتسبب اقرانه فى تنحيته اما بعامل الحسد ، أو مجاملة لآخر ، أو بسبب الحقد ، أو لدافع شرير آخر ـ ولكن متى كانت هذه التنحية من الخصوم فلست فى حاجة الى اقامة البرهان على ما يناله من فائدة بسبب شرهم .

يليق بنا اذن أن نكون على حذر من كل جهة وأن نحترس حتى لا تتسرب سرا أى شرارة من نار هذه الشهوة ـ شهوة رئاسة الكهنوت ـ ومن كان متحررا أصلا من هذه الشهوة ينبغى أن يبقى على تحرره منها بعد وضع اليد عليه . أما من كان أحد قد اقتنى بداخله هذا الوحش المفترس ـ وحش شهوة الرئاسة ـ قبل أن يصل الى هذه الكرامة فانه بعد رسامته يزج بنفسه فى جحيم داخلى يصعب وصفه . ولأن هذه الشهوة قد استولت على بدرجة كبيرة، فالخوفى منها ومن غيرها ، فقد أسرعت الى الفرار . لأنه كما أن المحب كلما اقترب من محبوبته ازداد ولهه وعذابه بينما متى بعدت عنه خمد هيامه ، هكذا الحال لمن يروم سلطان الكهنوت فانه كلما سعى اليه ازداد شر هذه الشهوة الى درجة غير محتملة ، ومتى كف عن السعى وراءه فان الرغبة فيه تخبو وتنطفىء .

- ١٢ -

فلا يمكن الاستخفاف بهذه الشهوة ، فهى وحدها قدتك
لامتناعى عن قبول هذه الرتبة . ومع هذا فهناك شه
اخرى لا تقل عنها . فما عسى ان تكون هذه الشهوة ؟ ينب
أن يكون الكاهن سديد الرأى عميق الافراز ، يمتد بص
الثاقب الى كل جهة ، لكونه مسئولا — لا عن نفس
فحسب — بل عن نفوس كثيرة . أما انا فكسول ومتر
وبالجهد أستطيع أن أخلص نفسى ، ولعلك تقر بهذا و
كنت لمحبتك تستر نقائصى . دعك من الحديث عن الأم
المختصة بالصوم والسهر والنوم على الأرض والتدريب
الجسدية القاسية الأخرى ، فأنت تعلم مدى تقصير
فيها .. وحتى ان كنت قد مارست هذه الفضا
واتقنتها ، فهى لن تنفعنى فى ممارسة هذه الوظيفة وذ
لكسلى وتهاونى الحالى ، لأن هذه الفضائل قد تنفع انس
يعيش فى قلاية ولا يهتم الا بخلاص نفسه .. واما بالنس
الى رجل تقدم ليحمل مسئوليات شعب كبير ويعنى ب
شخص فيه عناية فردية ، فكيف يعمل على نموهم ان
يكن هو على درجة عالية من قوة الارادة وصلابة العزيمة

- ١٣ -

وليس بغريب أن أضيف الى ما ذكرت لونا آخر من قدرة النفس على الجلد والمثابرة . فقد يكون الحرمان من الطعام والشراب والفراش الوثير أمرا مقدورا عليه عند اناس كثيرين وخاصة بالنسبة لمن تعودوا شظف الحياة ونشأوا عليها منذ نعومة أظفارهم ، بل وعند كثيرين غيرهم .. فان ممارسة هذه التدريبات والتعود عليها يجعل منها أمورا هينة . أما احتمال الشتائم ، والاهانات ، والألفاظ الجارحة ، والكلمات النابية ، والتعبيرات الباطلة من الأدنياء ، والتعنيف الذى يطلق جزافا سواء من الحكام أو المحكومين ... كل هذه الأشياء لا يقدر كثيرون على احتمالها

وقد يكتسب البعض قدرة على احتمال التدريبات الجسدية التى أسلفنا ذكرها ، لكنهم يضعفون أمام الأمور الأخيرة ، فيصبحون أكثر وحشية من الحيوانات الضارية. أمثال هؤلاء على وجه الخصوص ينبغى أن نقصيهم عن رتب الكهنوت . لأنه ان كان الكاهن غير ناسك أو زاهد ، فانه لن يفيد الكنيسة كثيرا ، أما سرعة الانفعال والغضب فهى تؤذى نفس صاحبها والذين يعاشرهم على السواء .. والله لم يتوعد الذين لا يصومون ولا الذين لا يزهدون ، بينما أنزل الويلات على من يغضبون باطلا وتوعدهم بالحكم ونار جهنم (متى ٥ : ٢٢) .. وكما أن من يحب المديح

الباطل يضيف وقودا الى نار جهنم بقدر عدد الأنفس ال
صار رئيسا عليها ، هكذا الذى لا يستطيع أن يتحكم
غضبه أو يمسك نفسه فى حواره مع الناس بل ينقاد و
انفعالاته ، كيف يكون حاله اذا أؤتمن على رعاية قطي
وهو كالوحش المفترس الذى يستثيره الناس لأى سبب
لن يعيش مثل هذا فى سلام ، فضلا عن انه يصيب النفو
التى أؤتمن على رعايتها بالأذى .

- ١٤ -

فليس هناك ما يعكر صفو الفكر أكثر من الغض
والاندفاع بلا ترو ، ذلك لأن الكلام الموجع يهيج السخ
(أمثال ١٥ : ١) فتصاب النفس بالظلام ، فلا تميز
العدو والصديق ، أو بين الصالح والطالح ، فالكل أما
سواء . وهى تحتمل كل ما يقابلها من شر وأذى حتى تك
شهوة الغضب .. لأن الغضب شهوة تطغى على النف
فتقلب جميع موازينها وتشوش كل أفكارها .. وهو يد
صاحبه الى الغرور والكبرياء ومعاداة الناس وكراهي
لغير ما سبب ، كما يحمله على التصرفات الطائشة وتو
الاساءة الى الغير واشياء أخرى كثيرة مماثلة . لأن النف
تكون قد أنزلقت وراء حمو الغضب حتى لم تعد هنـ
ضوابط تكبح جماحها .

باسيليوس : لم أعد احتمل منك اكثر من هذا التهكم لأنه لا يخفى على احد انك قد تساميت فوق هذه النقائص .

ذهبى الفم : أتريد أن تدفعنى الى هذه النار وأن تثير الوحش المفترس(١) الذى لا زال هادئا ؟ ألا تعلم أنى لم افتن هذه العادات عن فضيلة فى نفسى بل من اعتزالى وحبى للانفراد ؟ فمن كانت هذه الحال حاله فالأفضل له أن يقنع بوحدته أو مصاحبة صديق أو اثنين ، حتى ينجو من نار الغضب التى لا يستطيع أن يتجنبها ان انغمس فى كل هذه الاهتمامات .. فهو حينئذ لا يجر نفسه وحدها بل آخرين كثيرين الى حافة الهلاك ويبعدهم عن جادة الصواب . لأنه من شأن الرعية التشبه بالراعى والتمثل به ومحاكاته فى تصرفاته . فكيف يمكن للراعى أن يوقف غضب الرعية ان كان هو يشتعل بنار الغضب ؟. ومن من الرعية يمكن أن يكون وديعا وهو يرى الراعى سريع التهيج ؟.. فنقائص الرعاة يصعب اخفاؤها ، بل حتى البسيط منها يظهر بوضوح . فالمجاهد مادام معتكفا بداره لا ينافس ولا يصارع أحدا ، فان أحدا لا يهتم بنقائصه مهما عظمت ، لكن اذا نزل الى حلبة المصارعة انكشف حاله وافتضح امره . هكذا

---

(١) أى شهوة حب الرئاسة

الذين يعيشون في عزلة فان وحدتهم تكون قناعا يحجب عيوبهم حتى اذا ظهروا في الحياة العامة وخلعوا ثوب الوحدة الذى كان يسترهم فان نقائصهم تظهر في الحال وتنكشف نفوسهم . وكما أن فضائل كثيرين أفادت غيرهم وحولتهم الى مجاهدين يتشبهون بهذه الفضائل ، هكذا مناقص البعض قد تدفع المتراخين الى اتيان ما هو ليس من الفضيلة ، والى التراخي فى عمل الخير . من أجل هذا ينبغى أن تشع نفس الرؤساء بالضياء فى كل جانب ، لكى يحل السلام والمسرة فى نفوس المستضيئين بهم . فهفوات الرجل العادى حين تعمل فى الظلام تهلك صاحبها فقط وضررها لا يتعداه ، وأما زلة الشخص المعروف لدى الجميع فان ضررها يصيب الكثيرين ، فيتمادى الساقطون فى شرهم، ويأس الساعون نحو التوبة . وفضلا عن هذا فان أخطاء غير المعروفين حتى لو انكشفت فلا تؤثر فى أحد .. أما الذين يشغلون مراكز ظاهرة فلأنهم على مرأى من الجميع فأخطاؤهم لها أثر كبير مهما هان أمرها ، ذلك لأن الناس يحكمون على الخطية ليس بمقدارها بل بمنزلة مرتكبها . لهذا ينبغى أن يتحصن الكاهن تماما بسلاح متين من اليقظة والمراقبة الدائمة لأسلوب حياته ، حتى لا يجد فيه الراصد موضعا ضعيفا يطعنه فيه طعنة قاتلة . لأن جميع المحيطين به ينتهزون فرصة لطعنه واسقاطه ، ليس أعداؤه ومنافسوه فحسب ، بل حتى كثيرون ممن يدعون صداقته .

لهذا ينبغى أن يلبس الكهنة قوة من الله ، كأولئك الفتية القديسين الذين ألقوا فى آتون النار فى بابل (دانيال ٣) . لأن الكهنة لا يلقون فى نار وقودها من حطب أو قار بل ماهو أمر واقسى .. فهم لا يتعرضون لنيران مادية بل يحاصرهم لهيب الحسد من كل جانب ، معرضا حياتهم لاختبارات أشد قسوة من نيران آتون الفتية الثلاث ... فبقدر مايدبر الكاهن حياته تدبيرا حسنا فى كل مجال ، فانه يكون بعيدا عن المكائد . أما ان تهاون فى أمر قد يبدو تافها (بما أنه انسان فى هذا العالم الكثير الأخطار) فان تعفيه فضائله واعماله الطيبة الأخرى من السنة الناقدين ، بل أن هذه الهفوة الصغيرة تطغى على كل ما سواها . فكل الناس يتأهبون للحكم على الكاهن ، ليس باعتباره بشرا من لحم ودم ، بل كملاك تحرر من كل أسباب الضعف البشرى . وكما أن الجميع يخشون الحاكم المستبد ويتملقونه طالما كان يستمتع بسلطانه الذى يعجزون عن مقاومته ، حتى اذا ضعف هذا السلطان انقلب عليه الذين كانوا من قبل يدعون صداقته ، فيعلنون له عدم احترامهم ويناصبونه العداء ويهاجمونه فى مواطن ضعفه بغية عزله من منصبه .. هكذا الحال مع الكاهن ، فمن كانوا يوقرونه ويحترمونه أيام رئاسته وسلطانه ، اذا لمسوا فيه أى ضعف سارعوا الى عزله ، ليس كعزل الحاكم المستبد فحسب بل أسوأ بكثير . وكما أن الحاكم المستبد يخشى من حاشيته وحراسه ،

هكذا الكاهن يخشى أيضا من المقربين اليه والمشاركين له فى خدمته .. بل يجزع من هؤلاء أكثر من سواهم ، لأنه ليس من يشتهى رئاسته ويتطلع اليها أكثر منهم . وهم بحكم قربهم منه وتعرفهم على أخص شئونه ، فانهم أول من يشعرون بهفواته قبل غيرهم . واذا افتروا عليه فلن يعوزهم الدليل لاثبات افتراءاتهم ، فيعظمون ما صغر من الهفوات ، ويدينون ضحيتهم ناقضين قول الرسول : « ان كان عضو واحد يتألم فجميع الأعضاء تتألم معه . وان كان عضو واحد يكرم فجميع الأعضاء تفرح معه »(١) .

أفيرضيك اذن أن تلقى بى فى آتون هذه الحروب ؟.. وهل تعتقد أن لدى الكفاءة لمثل هذه المعركة ؟ .. من أعلمك بهذا ومتى ؟ .. ان كان الله هو الذى شهد لك بذلك فأرنى النبى الذى تنبأ بهذا وأنا أخضع .. فان لم تستطع، وكان رأيك فى قائما على مجرد فكر بشرى ، فأرجو أن تقلع عن هذا الوهم .. فليس أقدر منى على الحكم فى أمورى لأنه « من من الناس يعرف أمور الانسان الا روح الانسان الذى فيه »(٢) .

---

(١) كورنثوس الأولى ١٢ : ٢٦

(١) كورنثوس الأولى ١٢ : ٢٦ .

فلو انى قبلت هذه الكرامة لجعلت من نفسى وممن يزكوننى أضحوكة ... لأن اشتهاء هذه الرئاسة لا يثير الحسد وحده ، بل الكثير من الشرور التى تدفع الكثيرين الى محاربة من نالوها .. وكما أن محبى المال يحزنهم طول أعمار آبائهم ، هكذا فان أمثالهم وأشباههم لا يسعدهم طول بقاء الكاهن فى منصبه . ولهذا فانهم عوض أن يقتلوه ، لأن القتل جريمة ، فانهم يسعون الى تنحيته ليخلفوه فى كرسيه ، متطلعين الى الفوز بالكرامة التى ينعم بها الكاهن .

ـ ١٥ ـ

صورة أخرى من صور الكفاح المحاطة بمخاطر عديدة أعرضها عليك .

اذا ألقيت نظرة على الانتخابات العامة حيث تتم عادة التزكية للكهنوت ، سوف ترى اتهامات كثيرة تنسب الى الكاهن بعدد من يرعاهم . فالأكليروس جميعهم ينقسمون الى فرق وشيع حتى ليتعذر على « مجلس الشيوخ »* أن

(*) لايمكن على وجه التحديد معرفة من هم ناخبو الاسقف فى ذلك الزمان . فمن المحتمل ان يكونوا خليطا من الكهنة ورؤساء الشمامسة . وقد أشار اليهم ذهبى الفم فى موضع آخر باعتبارهم « آباء » وفى مكان آخر « رجال كبار » وها هو يسميهم هنا « مجلس الشيوخ » .

تتحد كلمتهم فيمن يختارونه اسقفا ، اذ ينحاز كل منهم الى جانب أحد المرشحين ، وذلك لأن لكل منهم وجهة نظر مختلفة ، غير ملتزمين بفكر واحد يضعونه نصب عيونهم وهو اختيار اللائق والبحث عن النفس الفاضيلة ، بل يتطلبون مؤهلات أخرى لنوال هذه الكرامة .. فيقول بعضهم مثلا : لننتخب هذا الرجل لأنه ينتمي الى اسرة عريقة . ويقول آخرون : لا بل ننتخب هذا لثرائه وغناه فهو لن يحتاج الى موارد الكنيسة . وفريق ثالث يدعو لمرشحه لأنه : انسلخ من معسكر خصومهم . ثم يتحمس آخرون لتزكية رجل لمجرد انه تربطه بهم روابط شخصية وثيقة ، أو لانتمائه الى موطنهم ، او لأن المرشح يجيد الملق . وفى كل هذه الحالات لا يفكر أحد فيمن يكون حقا جديرا بهذه الكرامة . اما أنا فلا أؤمن بصلاحية هذه المعايير فى الترشيح للكهنوت ، اذ انه حتى لو كان المرشح على درجة عالية من التقوى — وهذا أمر هام فى الكهنوت — فانى لا استطيع أن اغامر بترشيحه استنادا الى تقواه فحسب اذا لم يقتن مواهب أخرى .

وانا أعرف كثيرين فرضوا على أنفسهم تدريبات شاقة ، وعذبوا اجسادهم بأصوام طويلة ، ولكن لأنهم لا يتحملون الا مسئولية انفسهم فقط فيكونون مرضيين امام الرب ، ويوما بعد يوم يضيفون الى فضائلهم فضائل أخرى

جديدة ، حتى اذا خرجوا الى الحياة العامة واضطروا الى التدخل لتصحيح جهالات الشعب ، وضح عدم صلاحيتهم لهذه المهمة الكبيرة ، حتى ان بعضهم يتخلى عن اسلوب حياة الفضيلة التى كان ينتهجها .. وهكذا يخسرون انفسهم دون ان يربحوا آخرين .

اما من قضى اكثر حياته فى اول درجة من درجات الكهنوت حتى بلغ سن الشيخوخة ، فلا يسوغ ترقيته الى درجة اعلى لمجرد احترام سنه .. طالما انه لم ينم فى النعمة والتقوى رغم بلوغه سن الشيخوخة . لست أقول هذا لأقلل من قدر الشيخوخة ، او لأغلق الباب امام المرشحين لهذه الرتبة من بين الرهبان . (فهناك نماذج من هؤلاء كانوا موفقين توفيقا كبيرا) — بل ما أود أن أبرزه هو انه ليس النسك فى حد ذاته او التقدم فى السن وحدهما كافيين لنوال الكهنوت .

وهناك ايضا من يسوقون مزاعم أخرى اكثر سخفا .. فالبعض يمنحون درجات كهنوتية حتى لا ينضمون الى صفوف الخصوم .. وآخرون يمنحونها اتقاء لشرهم . فهل هناك تعد على الحق اكثر من هذا ؟ ان الأشرار الملوثين بالاثم يكرمون لأجل امور كان ينبغى أن يحتقروا لاجلها !! ويرتقون الى الكهنوت لأجل امور كانت كافية لاقصائهم عن الكنيسة !!

ايجوز لنا بعد هذا أن نتساءل عن سبب غضب الرب علينا ، ونحن نقلد هذه الدرجات المقدسة الكريمة لرجال أشرار أو غير صالحين فيفسدوها !؟

كثيرا ما كنت أسخر من الحكام العلمانيين لأنهم فى توزيع المناصب لا يقيمون وزنا للقيم الخلقية بقدر اهتمامهم بالمال والجاه والنفوذ .. حتى تطرق الى سمعى تفشى مثل هذه الحماقات فى شئون الكنيسة أيضا ، فلم أعد أستنكرها على العلمانيين . وقد لا يكون مستغربا ان أهل العالم الذين يحبون المديح ويفعلون كل شيء سعيا وراء الربح أن يرتكبوا مثل هذه الأخطاء .. أما الذين يدعون التحرر من هذه الأهواء فقد شابهوا أهل العالم ، ورغم جهادهم من أجل السماويات فقد أصبحوا يتصرفون كما لو كان الأمر متعلقا بشراء حقل أو ما شابه ذلك .. وهم يقيمون أناسا غير مستحقين فى تلك الأمور السماوية ، التى من أجلها أخلى المسيح الكلمة ذاته آخذا شكل العبد وبصق عليه وتألم ومات فى الجسد .. وليت الأمر كان يقتصر على هذا فحسب ، بل انهم يضيفون أمورا أخرى أكثر شرا .. فانهم يختارون ليس فقط غير المستحقين بل يبعدون أيضا الأكفاء المستحقين للخدمة ، وكأنهم فى كلتا الحالتين يريدون هدم سلام الكنيسة ، وكأن سلوكهم الأول لم يكن كافيا لاثارة غضب الله فيدبرون أمورا أخرى أشر منها . وفى رأيى

ان ابعاد الرجال النافعين لنقحم فى مكانهم غير المستحقين لهو شر كبير ..

افلا تستحق هذه الأفعال مجازاة بنيران متقدة أضعاف ما انذرنا به الكتاب المقدس ؟؟ .

ومع هذا فان هذه الآثام يحملها عنا من لا يشاء موت الخاطىء مثلما يرجع ويحيا . حقا ما أعجب محبته للبشرية وما أعظم رحمته !! ان المنتمين الى المسيح هم الذين يكسرون وصايا المسيح أكثر من أعدائه وخصومه .. ومع هذا فهو لعظم رحمته مازال يعاملهم بمحبة ويدعوهم الى التوبة . المجد لك يارب . يارب لك المجد . ما أوسع محبتك واعمقها ! وما أعظم غنى احتمالك للبشر !! ان الرجال الذين أكرمتهم ورفعتهم من العدم والهوان الى كراسى الكرامة يستخدمون ما أكرمتهم به فى اهانتك !! ويتجاسرون على المقدسات ، ويرفضون الغيورين ليفسحوا للأشرار مجالا لارضاء أهوائهم بغير خوف أو وجل !!

واذا سألت عن علة هذه الشرور فستجدها مماثلة لما سبق ان ذكرته ، فجذورهما واحدة واصلهما واحد وهو « الحسد » الذى يظهر فى صور متعددة . فهم يبعدون رجلا من قائمة المرشحين للكهنوت لأنه حديث السن .. ويبعدون آخر لأنه لا يجيد فن المديح ، ويرفضون ثالثا لأنه

اغضب كيت وكيت من الناس .. ورابعا لارضاء شخص
كبيرة تحرص على ترشيح شخص معين ، ويبعدون خام
لأنه رقيق وحنون أما السادس فلأنه عنيف مع الخطاة
والسابع لسبب مشابه .. وهكذا لا يعدمون علة ينسب
اليه ان شاءوا .. حتى انهم قد يعتبرون الثراء سـ
لرفض صاحبه اذا لم يجدوا فيه علة يحسبونها ضده
فهم لا تعوزهم القدرة على ايجاد المبررات والعلل .. الا
الذى يجعل المرء لا يتسرع فى قبول هذه الكرامة بل يتـ
ويتروى .

وهنا قد يتساءل احد : ماذا يصنع الاسقف الذى يتح
عليه أن يواجه مثل هذه العواصف ؟.. وكيف يقدر
يتصدى لمثل هذه الحملات ؟؟

فلو أن الأسقف دبر الأمور تبعا للمبـادىء المستقي
لهاج أعداؤه وخصوم مرشحه وقاوموهما وأثاروا المنازعا
وكالوا التهم لهم ويظلوا هكذا حتى يتم لهم اقصـاؤ
واحلال مختاريهم محلهم . وهذا هو مثل ما يحدث عند
يكون فى السفينة قراصنة دأبوا على تدبير المؤامرات والخ
ضد الربان وملاحيه .. فاذا آثر الأسقف الاستسلام وق
مرشحين غير مستحقين فانه يجلب على نفسه غضب الله
وهل هناك أسوأ من هذا ؟؟ .. ومع هذا فانه حتى لو قب
هذا الوضع فلن تسلم علاقته بهم من مشاكل اخرى اش

من الأولى ، لأنهم سيتضافرون معا ليشكلوا قوة أوسـع
سلطة واكثر نفوذا .. وكما أن الرياح اذا تصادمت تثير
المحيط الساكن وترفع أمواجه حتى تطيح بالسفن التى
كانت تتهادى فوق سطحه .. هكذا حال الكنيسة اذا
احتضنت الأشرار ، فان سلامها يتبدد ليحل محله الشر
والهوان .

- ١٦ -

فاى نوع من الرجال ينبغى أن يكون من يواجه مثل هذه
الأعاصير ، ويتصدى لمعوقات الخدمة العامة ؟. ينبغى أن
يكون عزيز النفس فى غير كبرياء ، حازما لكنه رحيم ، اداريا
بغير دكتاتورية ، منصفا بغير مجاملة ، متواضعا فى غـير
خنوع ، صارما ورقيقا معا .. حتى يمكنه التغلب على تلك
المصاعب . وينبغى أن يقدم على الكهنوت بثقة من هو أهل
له ، وبنفس الاصرار ينبغى أن يبتعد عنه غير المستحق .
حتى لو اتفق الجميع على اختياره ، واضعا نصب عينيه
هدفا واحدا هو بناء الكنيسة بلا تحيز لصديق أو عدو .

لعلك توافقنى الآن انى تصرفت بحكمة عندما رفضت
قبول كرامة الكهنوت !.. ومع هذا فانى لم استطرد بعد
فى ذكر كل مبرراتى ، اذ لم يزل بعد هناك أسباب أخرى
اريد أن اذكرها ..

فالضرورة تقتضى لمن هو مقبل على شق هذا الطريق

أن يتدبر كل شيء بدقة قبل أن يضع يده على المحراث
ولعلك تتساءل لماذا ؟؟ .. ذلك لأن من يعـــرف كل ش
بوضوح لن يستغرب أى أمر يواجهه فيما بعد . فهل تر
أن نتدارس موضوع خـــدمة الأرامل ؟ .. أم العنـــا
بالعذارى ؟ .. أم المتاعب القضائية ؟ . ان كلا من هـ
الموضوعات له مشاكله ومخاوفه الخاصة .

فلنبدأ بالموضـــوع الذى يبدو للكثيرين أنه أســـه
الموضوعات الثلاثة ــ وهو موضوع خدمة الأرامل ــ الذ
يظن المهتمون به أنه لا يتعدى الاهتمام بتدبير الانفاق عليهن
مع أنه فى الحقيقة أبعد من هذا بكثير ، لأن الاهتمام بالأرام
يحتاج الى دراسات فاحصة لمعرفة من تستحق منهن أ
تسجل بسجلات الكنيسة* لأنهن أن أحصين وسجلن بغ
تمييز ضمن سـجل الأرامل فأن هذا يكون سـببا لشرو
كثيرة .. فمنهن من دمرن بيوتا وهدمن زيجات ، بل ومنه

(*) منذ العصر الرسولى عنيت الكنيسة برعاية الأرامل (اتى ٥ : ٩ ، ١٠) وجعلته واجبا يستحق الأداء بحرص لئلا تستمتع غير المستحقات بالخدمات التى تقدم لهن . وفى عهد ذهبى الفم كان هنـاك « نظام للأرامل » يختلف عن النظام البسيط الذى كان يميز العهود الأولى والذى كانت تنذر فيه الأرامل أنفسهن للخدمة الدينية . لقد حبذت الكنيسة بقوة الامتناع عن الزواج الثانى ، وكثير من النساء كن يتظاهرن بذلك أنفسهن للترمل لكى ينتفعن من مساعدات الكنيسة ، بينما كان سلوكهن لا أخلاقى .

من اتهمن بالسرقة وابتزاز الأموال وغير ذلك من الأعمال الأخرى المشينة . فمساعدة مثل هؤلاء النساء من موارد الكنيسة يثير غضب الله ويعرض المسئولين للدينونة ويطفىء حماس الغيورين الذين يحبون عمل الخير . لأنه من يرضى أن ينفق المال الذى أوقفه للسيد المسيح على نساء يتسببن فى الاساءة الى اسم المسيح ؟.

لأجل هذا ينبغى الاستقصاء والتحرى الدقيـــق حتى لا تقدم المساعدات الى أمثال تلك الأرامل اللاتى يستطعن أن يعلن أنفسهن .. وفضلا عن هذا فان الأمر يحتاج الى جهد آخر لنضمن للمحتاجات موردا ثابتا من المال ، لأن الفقـــر الاجبارى لا يجعل صاحبه يشكر أو يحتمل .

فالحاجة اذا كبيرة الى حكمة الغيورين وحماسهم لسد كل فم وقطع الطريق على أى احتجاج .

وقد اعتاد غالبية الناس متى رأوا انسانا يحتقر المال أن يرشحوه لأمانة الصندوق .. ومع هذا فلست أظن أن هذه الفضيلة الروحية وحدها كافية ــ مع أنها تأتى فى مقدمة الفضائل التى ينبغى التحلى بها لأنه بغيرها يصبح الانسان ذئبا خاطفا لا راعيا صالحا يحافظ على ما أؤتمن عليه ــ فهناك فضيلة أخرى ينبغى أن تقترن بها وهى فضيلة الصبر والاحتمال التى هى وراء كل فضيلة ، تقود الانسان

الى ميناء السلام . فالأرامل فئة من الناس ــ بسبب فقرها وتقدم سنها وميلها الطبيعى ــ تنهمك فى الثرثرة ، دائمة الشكوى والتنهد والنحيب من أجل أمور كانت تستوجب الشكر والحمد ، وهكذا يتحتم على المشرف على أمورهن أن يحتمل كل هذه الأمور بروح طيبة ، والا يجتد على مايثرنه فى غير موضعه ، لأن هذه الفئة تستحق أن يرثى لمصائبهن لا أن يزدرى بشقائهن .. من أجل هذا فان الحكيم ، لما رأى فى الطبيعة البشرية من كبرياء وحب للمال ، وأحس بطبيعة الفقر وشدة تأثيره الى الحد الذى يجعل أكثر الناس تعففا يطرح عن وجهه الحياء طلبا لما يحتاج اليه ، مما يدعو المرء الى الصبر على احتمال المتاعب التى تصدر عنهن ، فلا يصير لهن عدوا بل يحرص على مصادقتهن ومساعدتهن ــ لهذا ينصح الحكيم بأن يكون الانسان ودودا أليفا مع صاحب الحاجة قائلا : « أمل أذنك الى المسكين واجبه برفق ووداعة » (سير ٤ : ٨) . ويخاطب القادر على تحمل ضعفات الآخرين فينصحه قبل اغداق العطايا بأن يعامل صاحب الحاجة بسماحة الوجه ورقة اللفظ وتواضعه .. لأن الانسان حتى وان كان لا يستولى على مال الأرامل لكنه يكيل لهن الاهانات والتقريع ويحتد عليهن ، فان عطاياه لن تخفف من حدة اليأس وكآبة الفقر ، بل ان سوء معاملته لهن سيضاعف من حزنهن والمهن . فالمحتاجات رغم

اضطرارهن الى رفع الحياء تحت الحاح الجوع والعوز الا انهن يتألمن فى قرارة نفوسهن لما صار اليه حالهن .

فجدير بمن يتصدى لخدمتهن أن يدرب نفسه على تحمل الآلام ، ليس فقط لكى لا يزيد حزنهن بغضبه عليهن بل لكى يخفف عنهن بما يقدمه لهن من توجيه ومواساة .

وكما أن المرء اذا أهين لا يحس بقيمة ما يقدم له من اعانات مالية مهما كثرت بسبب الجرح الذى يلحقه من سوء المعاملة ، هكذا فانه من الناحية الأخرى اذا عومل معاملة رقيقة وقدمت اليه العطية ومعها كلمة مشجعة ، فانه يسر ويتعزى حتى أن قيمة هذه الهبة تتضاعف بسبب الأسلوب الذى قدمت به . ولست أقول هذا من عندى فقد استعرته من صاحب الحكمة السابق الاستشهاد بكلامه فهو يقول : « يابنى لا تقرن الصنيعة بالملام ولا العطية بكلام التنغيص . أليس الندى يبرد الحر هكذا الكلام أفضل من العطية . أما ترى أن الكلام أفضل من العطية وكلاهما عند الرجل المنعم عليه سواء ؟ » (سير ١٨ : ١٥ ــ ١٧) .

ولا يكفى أن يكون المشرف على الأرامل رقيقا واسع الصدر فحسب بل ينبغى أن يكون أيضا محنكا فى تدبير المال وادارته .. اذ لو أعوزته هذه المهمات لآلت مصالح المساكين الى الضياع . فمنذ زمن ليس ببعيد أؤتمن أحد

المسئولين عن هذه الخدمة على ثروة طائلة ، ومع انه لم ينفقها على نفسه فانه لم يصرف منها كذلك على المحتاجين الا فى حالات استثنائية ، وطمر الجانب الأكبر من الثروة فى الأرض حتى قامت حرب وقعت فيها الأموال بين يدى الأعـــداء .

فالأمر يحتـــاج اذن الى تبصر ، بحيث لا تترك موارد الكنيسة لتتكدس أو تتبـــدد بل يتم توزيعها فى الوقت المناسب ..

ولا تغفل مقدار ما يحتاج اليه اضافة الغرباء ورعاية المرضى من أموال كثيرة وحكمة من القائمين بها . فكثيرا ما يزيد الانفاق فى هذه الأبواب عما ينفق فى خدمة الأرامل ، بحيث يحتاج المهتم بهذه الخدمة الى مهارة فى تدبير الموارد المالية وحكمة فى توجيهها .. وينبغى أن تكون هذه الخدمة مصحوبة بالاجتهاد والغيرة ذلك لأن المرضى قوم يصـــعب ارضاؤهم وهم قابلون للاستسلام والتراخى ، فاذا لم يتم التعامل معهم بحذر ودقة كبيرة فان أى تجاهل بسيط قد يضر بالمريض ضررا كبيرا .

- ١٧ -

اما رعاية العذارى فالخوف والجزع عليهن يكون أكبر بمقدار مالهن من منزلة . لأن هذا القطيع يتميز بصـــفات اسمى مما للآخرين ـ ومع هذا فانه حتى بين هذه الفئة الطاهرة يندس عدد لا يحصى من الساقطات مما يزيد حزننا .. فالعذراء تكافح لبلوغ اهداف أسمى وتجاهد فى سبيل الفلسفة العليا(١) ، وتمثل حياة الملائكة على الأرض. ورغم كونهن فى الجســـد الا انهن يأتين أعمـــالا يمكن أن تنسب للقوات السرمدية . وفضلا عن هذا فلا ينبغى أن تتردد العذراء على أماكن كثيرة أو غير ضرورية ، وغير مسموح لها أن تتكلم كلاما عشوائيا اما الألفاظ الخارجة فلا ينبغى أن تخدش سمعها . ومن ثم فهى تحتاج الى رعاية كبيرة ، لأن عدو الخير والطهارة رابض دائما يتربص لهن ، يلتمس افتراس من تتهاون منهن أو تنزلق ..

---

(١) هى حياة التأمل الروحى وهى غير حياة الرهبانية . ويرجح ان ذهبى الفم كان يتحدث فى هذا الفصل عن العذارى المكرسات لخدمة الكنيسة واللاتى كن يعشن مع آبائهن (ان كانوا أحياء) أو مع آباء الكنيسة . وان أول اشارة الى حياة النذيرات اللاتى يعشن فى مساكن منعزلة جاءت فى منتصف القرن الرابع . ويقال ان القديس باسيليوس انشأ واحدا من هذه البيوت .

والى جانب هذا فما أصعب ما يعانينه من مقـــاومة طبيعتهن وغرائزهن البشرية . وعلى العموم ينبغى ان تهيأ العذراء نفسها لحرب ذات وجهتين ، احداهما تهاجمها من خارج والأخرى تضغط عليها من داخل . من اجل هذا كان خوف المشرفين على العذارى كبيرا ، والخطر الذى يواجهونه بسببهن أعظم .. فان كانت الفتاة التى تعيش بمفردها تؤرق والدها لانشغاله بالمحافظة على بتوليتها ، أو لضياع زهوة شبابها (بغير زواج) ، أو بسبب عـــدم انجابها أو لكراهية زوجها له .. فكم يكون ألم من يهتم بأمور ليست كهذه بل أعظم منها متى عرض لهذه البتول عارض !! فليس المجنى عليه هنا انسانا بل المسيح ذاته ، وما تلام عليه الفتاة ليس عقما بل الشر الذى يؤدى الى هلاك النفس ، لأن « كل شجرة لا تصنع ثمرا جيدا تقطع وتلقى فى النار » (متى ٣ : ١٠) .. فمن يرفضها العريس السماوى لايكفى أن تعطى كتاب طلاق وتنصرف لحالها بل تعرض نفسها لعذاب أبدى »(٢) .

اما قضايا الأمور المدنية للأسقفية فهى حافلة بعـــدد لا يحصى من المشاكل والمصاعب التى تحتاج الى وقت طويل

---

(٢) هنا يسترسل ذهبى الفم فى وصف متاعب خـدمة العذارى استرسالا طويلا بصورة فضلنا حذفها .

ومجهود ضخم ينوء به القاضى العلمانى .. لأن مهمة الأسقف هى تحرى العدل واثبات الحقوق لأصـــحابها . فليست المشكلة هى مشكلة ضيق وقت أو مصاعب أو معوقات ، بل المخاطر التى تترتب على التهاون . فقد حـدث أن بعض الاخوة الضعفاء لما وقعوا فى أمر ولم يجدوا من يعينهم أو يساندهم تركوا ديانتهم ، وكثير من المظلومين حقدوا على من تخلى عن مساعدتهم بمقدار حقدهم على من ظلمهم ، غير مقدرين لما قد يكون هناك من معوقات أو ضيق وقت او حدود لسلطان الكاهن أو أى شىء آخر من هذا القبيل .. فهم قضاة بغير رحمة لا يقبلون عذرا الا انقاذهم مما حاق بهم من ظلم . فاذا لم يتمكن الكاهن من هذا فلن يفلت من لومهم مهما حاول تبرير نفسه باعتذارات شتى .

وبمناسبة الحديث عن الرعاية والملامة ، دعنى أكشف سببا آخر للملامة . فالأسقف اذا لم يقم يوميا بجـــولة واسعة من الزيارات قد تزيد عما يقوم به انســـان بلا مشغوليات ، فقد يؤدى الأمر الى عواقب عديدة لا يمكن التنبؤ بها . فليس المريض وحده بل حتى الأصحاء يطمعون فى زيارة الأسقف . وليس ذلك منهم عن تدين أو تقـوى بل كثيرا ما يكون سعيا وراء الظهور والكرامة . واذا حدث ان تكررت زيارات الأسقف لرجل غنى بغية صالح الكنيسة فسريعا ما تلصق به تهمة التملق .

ولماذا اتحدث عن الرعاية والزيارات ؟ بل ان مجـــرد اصطحاب الأسقف لشخص معين قد يعرضه للوم ويسبب له مزيدا من الضيق . وحتى عيون الأسقف يحتاج الى التحكم فى نظراتها ، ذلك لأن الشعب ينتقد ابسط حركاتها وسكناتها . وأيضا هيئة وجهه وابتسامته .. واحد يقول : لقد ضحك مع فلان من الأعماق .. وآخر يقول : لقـد رحب بفلان بترحيب وفرح بينما لم يعرنى سوى التفاتة عابرة . فمن ذا الذى يســتطيع أن يتصدى لكل هـــذه الحملات ، مالم يكن على درجة عالية من الصلابة ؟! .. وكيف يمكن أن ينجو من لومهم ؟ ...

وناهيك عن الحزن الذى يعـــانيه الأسقف حين تلجئه الضرورة الى قطع أحد أفراد الرعية من الكنيسة أو حرمانه من التناول .. اذ ليت الأمر يقف عند حد الحزن بل ان اضرارا أخرى قد تنشأ عن هذا التصرف .. فقد يخشى من احتمال سقوط الشخص المقطوع فيما ذكره القديس بولس الرسول : « يبتلع مثل هـــذا من الحزن المفرط » (٢ كورنثوس ٢ : ٧) .

لهذا كان التدقيق الشديد مطلوبا فى هذه المواقف ايضا حتى لا يصير ما هو نافع سببا لخســـارة اعظم . فمهما ارتكب ذاك من اخطاء بعد قطعه فان الطبيب الذى يحسن

استخدام مبضعه فى علاج مريضه ينبغى ان يشترك معه فى العواقب .

فالكاهن يتوقع حسابا ليس عن خطـــاياه التى ارتكبها بمعرفته فحسب بل عن الخطايا الأخرى التى سقط غـيره فيها بسببه . وان كنا نرتعـد عند حسابنا عن أفعـــالنا الشريرة واثقين أننا لن نستطيع الهروب من تلك النار التى تنتظرنا فى العالم الآتى فكم وكم يصيب الانسان الذى هو عتيد أن يقدم حسابا عن أخطاء الآخرين !!

وقد يشهد لى بصحة ما اقول ، قول بولس الرسول .. لا بل قول المسيح له المجد على لســان بولس : « أطيعوا مرشديكم واخضعوا ، لأنهم يسهرون لأجل نفوسكم كأنهم سوف يعطون حسابا » (عبرانيين ١٣ : ١٧) فهل الخوف من هذا الوعيد يمكن أن يكون هينا ؟

لا يسوغ هذا مطلقا ، وان ما قلته فيه الكفاية لاقنـــاع اشد الناس قسوة وشكا ، وانى ما امتنعت عن قبـــول الكهنوت كبرياء منى أو سعيا وراء المجد الباطل .. بل ان ما دعانى الى الفرار منه هو الخوف على سلامتى وتقديرا لخطورة المنصب .

الكتاب الرابع

اولا ـ الذين يدعون أنفسهم يتورطون فى قبول هـذه الخدمة المقدسة مثلهم مثل الذين يسـعون اليها لمصالح شخصية ـ كلاهما سيقدم حسابا عن هذه الخطبة فى اليوم الأخير .

ثانيا ـ أما الذين رسموا غير المستحقين حتى لو كانوا لايعلمون شيئا عن أخلاقهم وطبائعهم يكونون شركاء لهم فى العقوبة .

ثالثا ـ ينبغى أن يتميز الكاهن بمواهب عالية فى الخطابة

رابعا ـ يجب أن يكون مستعدا للمجاوبة عما يثيره كل الخصوم يهودا كانوا أو أمميين أو هراطقة .

خامسا ـ يجب أن يكون ماهرا فى النقاش والحوار .

سادسا ـ وهى الموهبة التى تفوق فيها بولس الرسول بنوع خاص .

سابعا ـ حتى أنه صار مضرب الأمثال فى كلماته اكثر من معجزاته .

ثامنا ـ وهو يريد لنا أن نتفوق أيضا فى هذا المجال .

تاسعا ـ لان عجز الكاهن فى هذه الموهبة يؤدى حتما الى خسران النفوس المؤتمن عليها .

أنصت باسيليوس لهذا ، وبعـد فترة وجيزة أجاب قائلا :

لو كنت قد بدأت بطلب هـذه الدرجة الكهنوتية لكان لخوفك هذا وجهه المعقول ، لأن من يسعى لنوال هـذه الدرجة فهو يعترف ضمنا بصلاحيته لها . فاذا لم يوفق فيما بعد فى حمل الأمانة فلن يقبل منه أى احتجاج أو اعتذار عن تقصيره بحجة عدم خبرته ، لأنه كان الأجدر به أن يمعن التفكير فى الأمر قبل التسرع فى قبول الرسالة التى رحب بها من قبل بكامل ارادته وتقديره للأمور ، بحيث لم يعد يقبل منه القول متعللا : لقد أخطـأت بغير اختيـارى .. وأسأت على غير ارادتى الى نفس هذا أو ذاك من الشعب . لأن الديان سـيجيبه قائلا : بما أنك كنت تعلم أنك غير مستحق لهذه الوظيفة وانك غير قادر على تحمل مسئولياتها بغير لوم فلماذا كنت اذا متسرعا ومتلهفا لتتقلد أمورا تفوق مقدرتك ؟ ومن أجبرك على هذا ؟ هل حاولت التهرب أو الفرار فأرغمت قسرا وعلى غير ارادتك ؟؟

اما أنت فلن تسمع مثل هذا الكلام لأنك لم تفعل شيئا من هذا يمـكن أن تدان عليه . وواضح للجميـع أنك لم تكن متلهفا أبدا ، وما سعيت مطلقا لهذه الكرامة على غير مافعل الكثيرون ...

ذهبي الفم : لو لم يكن هناك حقا عقاب ينتظرني بسبب حملي مسئولية رعاية خراف المسيح بغير استحقاق ، فهناك ماهو أهم بالنسبة الى وهو أن هذه الأمور نفسها التي أوتمنت عليها من المسيح هي اقسى من كل عقوبة لما تنطوي عليه من اظهار حقارتي وعدم أمانتي .

اذا لماذا كنت أتمنى أن تكون الأمور كما وصفتها ؟؟؟

لقد تمنيت هذا بالحقيقة من أجل هؤلاء الأشقياء التعساء (لأنه هكذا ينبغي ان أدعو الذين لم يحسنوا اداء واجبات هذه الوظيفة مهما ادعو آلاف المرات أن الضرورة قادتهم الى ذلك وان خطيتهم خطية جهل) حتى يتمكنوا من الخلاص من النار التي لاتطفأ والظلمة الخارجية (متى ٢٥ : ٣٠) والدود الذي لايموت (مرقس ٩ : ٤٤) والعقاب الذي يجعل نصيبهم مع المرائين (متى ٢٤ : ٥١)

لكني لا استصوب معك هذا الرأى ... لأن الأمر ليس كما تذكر بأى حال من الأحوال .. ولعلي استطيع أن أقدم لك مصداق قولي .. فالكهنوت عند الله أجل وأكرم من الملك .. فشاول بن قيس لم يسع الى الملك حتى صار ملكا وانما كان يرعي قطيعا من الحمير ثم تقدم الى النبي يسأل عنها .. فحدثه النبي عن الملك ... ورغم هذا فانه لم يسع الى الملك بجشع ، مع أن ماسمعه كان من نبي ،

بل تراجع وصلى الى الله كي يعفيه من الملك قائلا : « من انا ؟ ومن هو بيت أبي ؟ » (اصم ٩ : ٢١) فماذا حدث فيما بعد ؟؟ .. فحين أساء استخدام الكرامة التي وهبها له الله .. هل انقذته كلماته الأولى من غضب من اقامه ملكا ؟؟ .. وهل كان في مقدوره أن يبرر نفسه امام شكوى صموئيل النبي فيقول : « هل سمعيت انا وراء الملك وصولجانه ؟ .. لكم تمنيت أن أحيا حياة عادية هادئة ، وانما دفعتني انت الى هذا المنصب الكبير .. ولو بقيت في حياتي الأولى الوضيعة لما تعرضت لهذه المصادمات ، لأنني لو بقيت كواحد من افراد الشعب المغمورين لما ارسلت في تلك المهمة الصعبة ، ولا كان الله تعالى أوكل الى محاربة عماليق وما كنت سقطت في هذه الخطية » . لكن كل هذه الحجج واهية ، وهي ليست هكذا فحسب بل هي خطيرة ايضا لأنها تثير غضب الله .. لأن من يرفعهم الله في الكرامة لايجوز لهم أن يتعللوا بعظم الكرامة ليعتذروا بها عما يرتكبوه من خطايا ، بل الأجدر بهم أن يجعلوا من تكريم الله لهم حافزا لمزيد من الجهد والعمل . فمن يرتكبون الخطايا متعللين بما نالوه من كرامة غير عادية فانما يقابلون محبة الله الحانية بالتعدي والاهمال والبعد عن الله . فلا يليق بنا أن يكون لنا مثل هذا الفكر ، أو أن نسقط في مثل حماقاتهم ، بل الأجدر بنا أن نتاجر ونربح في هذه العطايا وأن تكون أقوالنا وأفكارنا مقدسة .

فلنترك موضوع الملك ونعود الى الكهنوت فهو موضوع خطابنا ـ فان عالى الكاهن ماسعى الى هذا المركز السامى ؛ لكن لما سقط فى الخطية فماذا نفعه من كونه لم يطلبه ؟؟ ومالى اقول انه لم يطلبه بل لو كان يريد أن يهرب منه لما كان هذا ممكنا لأن الضرورة كانت تحتم عليه أن يقبله لانه كان من سبط لاوى ، وكان ملتزما بأن يقوم بواجبات هـذه الرئاسة التى توارثها عن آبائه ، ولم يكن قادرا ان يتركها لغيره ... غير أنه مع ذلك عاقبه الله عما ارتكبه أبناؤه من خطايا (امل ٤) .

وهارون اول كاهن لليهود ، الذى من اجله كلم الرب موسى مرارا ، فلما لم يقدر أن ينهض بمفرده على ايقاف شر هذا الشعب الكبير ـ ألم يشرف على الهلاك لولا شفاعة شقيقه ووساطته الذى حول غضب الله ؟؟ (خروج ٣٢ : ١٠ ، ١١) . وما دمنا نتحدث عن موسى فمن الجيـد أن نبرهن على صـدق قولنا مما حدث معه . فهذا النبى القديس كان أبعد ما يكون عن التمسك بقيادة اليهود حتى أنه توسل الى الله ان يعفيه منها ، الى حد انه أثار سخط الله عليه بالحاحه فى الاعتذار (خروج ٤ : ١٣) ليس فى ذلك الحين فقط بل بعد ذلك أيضـا لما رقى الى هـذه الرياسة فانه تمنى الموت حتى يتخلص من حكم هـذا الشعب وقال « اقتلنى قتلا ان وجدت نعمة فى عينيك

فلا ارى بليتى » (عدد ١١ : ١٥) موسى هذا .. ما الذى حدث معه لما أخطأ فى البرية بسـبب عدم وجود الماء ؟؟ (عدد ٢٠ : ١٢) .. هل شفع رفضه المتكرر (للخدمة) فى تبرير خطيئته أو نوال صفح الله ؟؟ لماذا اذا حرم من ارض الموعد ؟ أليس من اجل هذه الخطية التى حرمته من التمتع بالبركات التى نالها أتباعه ؟؟ بل انه بعد متاعب وآلام كثيرة ، وبعـد تشرد لا يوصـف ومعـارك دموية وانتصارات فى الحروب ، مات موسى دون أن يرى الأرض التى تحمل فى سبيل بلوغها الأهوال والمشقات .. وبعد الذى عاناه من عواصف ورياح لم يفـز بسـلام الميناء وهدوئه .. !!

ارايت كيف أنه لايوجد مايمكن لأحد أن يعتذر به عن خطئه سواء من سعى الى هذه الكرامة أو من قدمه اليها غيره ؟!! لانه اذا كان الذين اختارهم الرب بذاته لهـذه المهمة الكبيرة لم يخلصوا من العقاب ولم ينقـذهم شىء منه ، فالجميع سواء : هارون وعالى وحتى هـذا النبى القديس صانع العجائب الذى فاق حلمه جميع من على وجه الأرض (عدد ١٢ : ٣) .. الذى خاطب الرب كمـا يكلم الصديق صديقه ، هذا الرجل الذى يعجز اللسان عن وصف عظمته !!

لقد اختار الرب يهوذا واحصاه ضمن تلاميذه القديسين

ومنحه كما للباقين بركة الخدمة الرسـولية مثل باقى الرسل .. ليس هذا فحسب بل ميزه عن الآخرين بأن أعطاه أمانة الصندوق (يوحنا ١٢ : ٦) .. فماذا حدث معه ؟؟ تنكر فيما بعد للرسالتين .. فخان سيده الذى ائتمنه على الكرازة ، وأساء استخدام المال الذى كان حرى به أن يحتقره ـ أتراه أفلت من العقاب لكونه رسولا ؟؟ كلا ، بل لقد كان هذا عينه سببا فيما جلبه على نفسه من عقاب أعظم وجزاء عادل . لأنه لايليق بنا أن نستعمل الكرامات المعطاة لنا من الله فى معاندته ومقاومته عوض أن تكون لمرضاته ومسرته .

اما الذى ينتظر أن يفلت من العقاب العادل لكونه قد نال كرامة مضاعفة فانه يشبه احد أولئك اليهود غير المؤمنين الذى بعد ماسمع قول يسوع المسيح : « لو لم أكن قد جئت وكلمتهم لم تكن لهم خطية ، وأما الآن فليس لهم عذر فى خطيتهم .. لو لم اكن قد عملت بينهم اعمالا لم يعملها أحد غيرى لم تكن لهم خطية (يوحنا ١٥ : ٢٢ ـ ٢٤) .. ياوم المخلص ومنقذ البشرية قائلا : ولم اتيت وخاطبتنا ؟ ولماذا صنعت هذه الآيات ؟ هل لكى تعاقبنا أكثر ؟؟ .. لكن هذه هى كلمات الجنون وعدم الافراز . لأن الطبيب الأعظم لم يأت ليحكم عليك بالموت بل جاء ليشفيك من مرضك ... ويخلصك من اسقامك .. وانت بمحض

ارادتك تهربت من بين يديه ، فاحتمل اذا مايصيبك من عقاب ، فقد كان فى مقدورك أن تبرأ من أسقامك السابقة لو أنك استسلمت لعلاجه ...

من أجل هذا لايكون عقابنا قبل اكرام الله لنا وبعده متساويا بل يكون العقاب بعد نيل المواهب أشد ، لأن الذى لاينصلح بعد الخير الذى يناله فانما يستحق عقابا أكثر . لهذا فقد اتضح أن حجتك هذه واهية وهى لاتنفع لأن تخلص من يلجأ اليها بل تعرضه للمسئولية أكثر . لهذا فلنلجأ الى وسائل أخرى للنجاة .

باسيليوس : خبرنى عن هذه الوسائل ، لأنى لم أعد أستطيع الآن أن أملك نفسى وقد أفزعتنى بأقوالك هذه ..

ذهبى الفم : لاتغتم ولا تنزعج هكذا .. أرجوك وأتوسل اليك ألا تضعف الى هذا الحد . فبينما نرجو نحن الضعفاء بالفرار من هذه الوظيفة المقدسة فانه يمكنكم أنتم الأقوياء أن تخلصوا بالاعتماد على نعمة الله ، وتجنب كل مالايتناسب مع هذه الكرامة ولا مع الله معطيها ... ولا يجب علينا أن نلتمس الأعذار لمن لم يسعوا اليها ، لأن هؤلاء أيضا ليس لهم عذر . لأنه فى تقديرى لو دعانا الى هذه الخدمة ربوات من الناس فالأجدر ألا نصغى اليهم بل نختبر

قلوبنا أولا ، ونتفحص الأمر من جميع جوانبه تفحصا دقيقا قبل أن نزعن لالحاحهم . فمن يتجاسر على بناء منزل الا اذا كان مهندسا ... ؟! أو يتحمل مسئولية معالجة مريض الا اذا كان طبيبا محنكا .. ؟! ولو اضطره الى ذلك الناس فانه يعتذر ولا يخجل من أن يعترف بجهله . فمن يؤتمن على الاهتمام بنفوس الكثيرين أفلا يجلس ليختبر نفسه أولا ؟ ... ولو أنه قبل هذه الخدمة المقدسة لالحاح الناس فكيف يهرب واياهم من الشقاء والهلاك الذى ألقوا بأنفسهم فيه ؟ وقد كان يمكنه خلاص نفسه ، أما الآن فقد أشرك معه آخرين فى الهلاك .. فمن أين له ان يأمل فى الخلاص .. أو ينال الغفران .. ؟! ومن سيتشفع لأجله ؟ هل هؤلاء الذين أكرهوه على قبول الوظيفة ؟ بل من الذى سينقذهم فى تلك الساعة الرهيبة وهم فى حاجة الى من يشفع فيهم للنجاة من الجحيم ؟!!

وحتى لاتظن أنى بأقوالى هذه اخيفك بل أعرض عليك حقيقة الأمر ، اسمع مايقوله القديس بولس الرسول الى تيموثاوس تلميذه وابنه الحبيب : « لاتضع يدا على احد بالعجلة ولا تشترك فى خطايا الآخرين » (١ تيموثاوس ٥ : ٢٢) ...

- ٢ -

وكما أنه لايجدى المختارين اعتذارهم قائلين : اننا لم نقدم على هذه الوظيفة من تلقاء أنفسنا ... هكذا لا ينفع من أقاموهم قولهم انهم ماكانوا يعرفون شيئا عمن تمت سيامتهم ، بل أن هذا الأمر نفسه يكون سببا فى دينونة أعظم لأنهم قدموا من يجهلونهم ... فاذا يجدر بمن يزكى كاهنا أن يتحرى الدقة فى اختياره ، كما يجب على المرشح أن يدقق فى الأمر قبل قبوله ... ذلك لأنه حتى لو انخدع الناخبون بتقرير مضلل فالمرشح فلا يمكنه أن يتعلل قائلا : أنا أجهل نفسى .. كما يقول الآخرون . وبما أنه عتيد أن يعاقب عقابا أشد مما سيلقاه مختاروه أفلا يجدر به أن يدقق فى فحص نفسه أكثر من تدقيقهم هم معه !! وحتى لو أرغموه جاهلين أمره فحرى به أن يستوقفهم ليكشف لهم اسبابه وضعفاته بحيث لايتركهم ينخدعون .. وهكذا اذ يكشف عدم استحقاقه ينجو من تبعات عظيمة بهذا المقدار .

ثم لنتأمل كيف أنه فى مجالات فنون الحرب والتجارة والزراعة وشتى نواحى الحياة ، لايقوم الفلاح بقيادة سفينة ، ولا يقوم الجندى بحرث الحقل ، او يقوم ربان السفينة بقيادة جيش .. فلماذا لايفعلون هذا ؟ أليس لوضوح الأمر عندهم ، وأدراك مدى المخاطر التى يتعرضون

لها بتدخلهم فى أمور لا دراية لهم بها ؟ حسنا فان كان
الخسائر التافهة تستلزم كل هـــذا التدقيق فى الفكر
وتجعلنا نرفض الاذعان لأى ضغط أو اجبار ، فكم تكو
حاجتنا ان كان العقاب أبديا كما هو الحال لن لايعرف
كيف يدبرون شئون الكهنوت ويتجاسرون على قبوله
أفنقحم أنفسنا فى خطر داهم ثم نتعلل بأننا اجبرنا ع
ذلك .. ؟! ان الديان العـادل لن يقبل منا مثل هـــ
الاعتذار .. ولهذا ينبغى أن نبدى حرصا فى الأمور الروح
أكثر من العالمية . أما نحن فيبدو أننا لانظهر هذا الحر
اللازم اذ اخبرنى : لو افترضا فى رجل أنه بناء ماهر
بينما هو فى الحقيقة غير ذلك ــ ثم كلفناه ببناء بيت فاطا
وحين استعمل خامات البناء أتلف الخشب والحجر ، و
أن بنى البيت تساقط أنقاضا .. أترى أنه يكفى لهـ
الرجل أن يعتذر بأنه اضطر الى ذلك ارضاء لمن أرغمه
لم يتقدم لهـذا العمل طواعية ؟! لقد كان الأحـرى به
يرفض الأمر حتى لو دعاه النـاس . فان كان من ي
الحجارة والخشب فقط لاينجو من العقاب ... أفيـ
منه من يهلك النفوس التى هى هياكل الله ، أو من يـ
بغير اكتراث ويظن أن اجبار الغير له ينقذه من المسئولية
... على انى تغافلت عن حقيقة أنه لايمكن لانسان أن ي
آخر على مالايريده .. ولكن ان سلمنا جدلا بأنه قد
تحت ضغوط شديدة ومكائد شتى خبيثة حتى وقع

المصيدة .. فهل ينقذه هذا اذا من العقاب ؟ فانا أطلب
اليكم الا نخدع أنفســـنا وندعى بأننا نجهل ماهو واضح
وجلى حتى للأطفال الصغار ... فلاشك أن الادعاء بالجهل
لن يفيدنا يوم الحساب ، لأنه كيف يتفق انه لما لم يكن هناك
من يستدعيك الى الخدمة كنت تعتقد أنك ضعيف ، ثم لما
وجد من هم على استعداد لتقديمك الى هذه الكرامة صرت
فجأة كفءا ، ووجدت نفسك صالحا لها ؟؟ انه لأمر مثير
للسخرية . لأجل هذا يعلمنا الرب أن من يريد أن يبنى
برجا ينبغى أن يجلس أولا ويحسب النفقة هل عنده مايلزم
لكماله . لئلا يضع الأساس ولا يقدر أن يكمل ، فيبتدئ
جميع الناظرين يهزأون به (لوقا ١٤ : ٢٨ ، ٢٩) . وان
كان عقاب هذا الرجل قد اقتصر على السخرية والاستهزاء
به ، فان الأمر سيكون بالنسبة الينا دودا لايموت ، ونارا
لاتطفأ (اشعياء ٦٦ : ٢٤) وصرير أسنان ، وظلمة خارجية ،
وقطع ، ونصيب مع المرائين (متى ٢٤ : ٥١) ...

فليس الأمر متعلقا بتدبير قمح أو شعير ، ثيران أو غنم
أو شيء آخر من هذا القبيل ، بل انه يختص بجســـد
المسيح ذاته . لأن كنيسة المسيح هى ــ كما يقول بولس
الرسول ــ جسد المسيح (كولوسى ١ : ١٨ ، ٢٤) ويجدر
بمن أوتمن عليها أن يقودها ليحفظ لها السلامة والعزة ،
وان يرصد سائر الجهات حتى لايصيبها دنس أو غضن

(افسس ٥:٢٧) أو يشينها شيء يشوه بهاءها وقوتها — و
يحرص بقدر مايستطيع من قوة بشرية على ان يحفظ
مايليق بهامتها المقدسة عديمة الفساد . واذا كان الراغبو
فى بلوغ مستوى من اللياقة البدنية يحتاجون الى الأطبـ
والمدربين الرياضيين والى التغذية السليمة والمران الد
والوف اخرى من القواعد ... فكم بالحرى يكون الا
مع الذين يهتمون بالجسم الذى لايصارع مع لحم ودم
مع قوات غير مرئية — فكيف يمكنهم أن يحفظوه سا
معافى ؟؟ ..

— ٣ —

اوتجهل ان هذا الجسم معرض لأمراض وحملات با
من جسدنا هذا اللحمى .. وانه سريع الفساد بـ
الشفاء ؟ وان الذين بيدهم علاج الأجساد لديهم ادواء ش
قد تم اكتشافها ، وآلات مختلفة وقوائم تغذية مناسـ
للمرضى ، وكثيرا ما كانت طبيعة الهواء فى حد ذاتها كا
لشفاء المريض . وهناك أمثلة لحالات نال فيها المري
قسطا ملائما من النوم فأعفى الطبيب من بذل اى جهد
اما هذا الجسم فلا يصلح معه شيء مما ذكر ، اذ لاتو
الا وسيلة واحدة لشفائه وهى التعليم بالكلمة . فهذا
السلاح الوحيد وقائمة الغذاء الوحيدة والجو المنا

الملائم للشفاء ... فبقوة التعليم يمكن ان ننهض النفس اذا سقطت ...

ومتى مرضت النفس بمرض التعاليم الزائفة والمعتقدات الدخيلة فنحتاج حينئذ الى قوة الكلام والأقوال ، ليس من أجل حراسة نفوسنا فحسب بل لمجابهة الأعداء . لأنه وان تقلد الانسان سيف الروح ودرع الايمان الى حد صنع المعجزات ، وبواسطة هذه العجائب يسد افواه المخالفين السفهاء ، ففى ذاك الوقت قد لايحتاج المرء كثيرا الى قوة الكلمة ... ومع هذا فانه حتى فى عصر المعجزات لم تكن الكلمة بغير فائدة بل ضرورية وحيوية . فبولس الرسول نفسه رغم انه كان محل اعجاب فى كل مكان بما يصنع من معجزات ، كان يلجأ الى التعليم والحوار . ويحثنا رسول آخر من بين التلاميذ على اكتساب هذه القدرة لنكون « مستعدين دائما لمجاوبة كل من يسألكم عن سبب الرجاء الذى فيكم (أبط ٣ : ١٥) . وما كان اجماع الرسل على ترك أمور العناية بالأرامل لاسطفانوس الا لكى يتفرغوا هم لـ « خدمة الكلمة » (أعمال ٦ : ٤) ونحن نحتاج الى ان نسلك نفس النهج ، الا ان كانت لنا القدرة على صنع المعجزات وهو الأمر الذى لم يبق لنا منه شيء بعد أن صار العدو يحاصرنا بمحارباته من كل جانب ..

من خرافه ؟ وما جدوى أن يتغلب عليهما كليهما ليسقط فريسة بين براثن المانويين Manicheans (١) ؟ واذا برهن على تفوقه عليهم يأتى أصحاب مذهب القضاء والقدر فيتسللون الى داخل القطيع . ولأنه لايمكن احصاء كل بدع الشيطان ، فانه مالم يكن الراعى بصيرا بدحضها جميعا فان الذئب سيستغل احداها ليدخل ويلتهم معظم القطيع .

وفى الحروب العادية نتوقع الفوز بالنصر ومكابدة الهزيمة من الجنود الصامدين فى ساحة القتال . أما فى الحروب الروحية فالأمر جد مختلف ، لأنه كثيرا ماتكون الحرب مع قوم لم يحاربوا اصلا أو يشتركوا فى المعركة على الاطلاق ولا تحملوا أى عبء فيها ، وقد يحتفظ الانسان بسكونه ويغلب والذى يشهر سيفه بلا خبرة يطعن نفسه بسيفه فيصير أضحوكة بين أصدقائه وأعدائه على السواء . ولكى أوضح قولى هذا أسوق مثال أولئك الذين يؤمنون بتعاليم مارقيون وفالنتينوس Valentinus & Marcion (٢) الغريبة

(١) هم أتباع مانى Manes او Manichaeus الذى ولد عام ٢٤٠ م وأعلن ان الله هو علة الخير ، والمادة سبب الشر . وقادته هذه النظرية الى الاعتقاد بأن جسد المسيح طيف لا مادى . وحذف العهد القديم من الكتاب المقدس واستبعد بعض فصول العهد الجديد التى تتعارض مع آرائه .

(٢) كلاهما كان مبتدعا لنوع من الغنوسية gnosticin وفى اعتقادهما ان العهد القديم كان اخلاقيا (أدبيا) عكس اله العهد

— ٤ —

من ثم ليكن هدفنا ان تسكن كلمة المسيح فى دا
(كولوسى ٣ : ١٦) لأننا لايجب أن نتأهب لنوع واحد
المعارك . فهذا القتال متعدد الجبهات ، ويشترك فيـ
أعداء كثيرون ، وليست أسلحتهم واحدة ولا أسلوبهم
الحرب واحدا . فيتعين على من يحاربهم ان يكون عـ
بخداعهم وحيلهم ... صحيح أنه فى الحروب العسكـ
يقوم كل فرد بعمل من الأعمال وفاء بالواجب المعين الـ
يتولاه ، لكن ليس الأمر فى حروبنا هذه فمن يترجى الـ
والغلبة عليه ان يتفهم كل فنون الحرب وخدعه ،
ابليس يعرف جيدا كيف ينفذ الى مهاجميه من أى ثـ
تترك بغير حراسة ويختطف الخراف سرا ، لكن الـ
يختلف ان أدرك ان الراعى قد أحكم حراسة كل النـ
وعرف كل حيله ومؤامراته . لأجل هذا ينبغى أن نتحـ
من كل جانب لأن المدينة المحصنة التى تحيط بها الأسـ
تستهزىء بمحاصريها وتعيش فى أمان ، فان صنع العـ
فى سورها ثغرة مهما صغرت فلا تنتفع شيئا بعد ذلك
تبقى من الأسوار ، حتى وان بقيت قائمة بأحكام . هـ
الحال فى مدينة الله متى شملتها يقظة راعيها وحـ
وحاصرتها كالحصن المنيع من كل جانب فجميع
الأعداء ومكائده تبوء بالفشل ... فما النفع أن تصـ
الراعى لبدع اليونانيين اذا كان اليهود يقتنصون ضـ

فان جميـــع المرضى بتعاليم امثـــال هؤلاء يســـقط
الشريعة التى سلمها الله لموسى من بين الكتب المقدسة
أما اليهود فيقدسون هذه الشريعة حتى بعد أن جاء الز
الذى ابطلت فيه ، ومازالوا يتمسكون بحرفيتها مخالف
ارادة الله . أما الكنيسة فهى لكى تتجنب كلا النقيض
سلكت طريقا وسطا ، فلا هى خضعت تحت نير الناموس
ولا هى نبذته أو نقضته بل توصى به رغم انقضاء عهد
لأنه كان نافعا فى وقته . فحرى بمن ينوى محاربة العدو
(اليهود والغنوسيين) أن يسلك طريق الوسط ، لأنه
انتقد اليهود لتمسكهم بالشريعة القديمة فانه يسقط
خطأ لا يغتفر ، لأنه بهذا يعطى فرصة للهراطقة ينتهز
الذين يبتغون تمزيق الناموس تمزيقا ، وأن سعى فى حماس
الى افحام الهراطقة فيمجد الناموس بافراط ويتحدث
عنه باعجاب فالفرصة هنا تكون لليهود . كذلك الحال
مع الذين يتبعون جنون سابليوس **Sabellius** ولوث

الجديد . وبينما كان مبدأ فالنتينوس **Valentinus** يمثل الجانب
الخيالى والنظرى لمذهب الغنوسية كان راى مرقيون **Marcion** يمثل
الجانب العملى منه وكان دينيا اكثر منه لاهوتيا .

أريوس **Arius** (١) اللذين سقطا بعد ايمان صحيح لعدم اتباعهما طريقا وسطا . وكلاهما ينتسب اسما الى المسيحية ولكن الباحث لتعاليمهما يكتشف انهما من شيعة ليست أفضل من اليهود وان اختلفا عنهم فى الاسم وحده ، ويجد ان الاريوسيين يؤمنون تقريبا بهرطقة بولس السموساطى **Paul of Samosata** وكلاهما قد حاد عن الحـــق وجانب الصواب . فما اشد الخطر الذى ينشأ عن هذه الحالات ، وما اضيق طريق الارثوذوكسية واحرجه ، فهو محـــاصر بالصخور على كلا جانبيه ، وهناك خوف ليس بقليل اذا حاول الانسان أن يضرب عدوا فى أحد الجوانب فانه قد يصاب من الجانب الآخر . فلو اثبت انسان وحدة اللاهوت سارع سابليوس الى اســـتغلال هذا التفسير لصـــالح أوهامه(٢) متعديا الناموس . وان ميز بين الاقانيم وقال بأن الآب واحد والابن آخر والروح القدس ثالث ، يقف اريوس ليؤول هذا التمييز بين الأقاليم الى خـــلافات فى

---

(١) اتهم سابليوس **Sabellius** فى مجمع رومية عام ٢٦٣ م بانه يقول ان الثالوث شخص واحد ، وان الكلمة والروح القدس هما مجرد فضائل او انبثاق اللاهوت . أما اريوس فيقول بأن ربنا يسوع المسيح كائن قبل تجسده وان بواسطته كما بآله صنع الله العالم باعتباره أسمى وأقدم المخلوقات .

(٢) اذا اعترف انسان بوحدة الثالوث مناقضا الاريوسيين قد ينزلق فى خطأ السابليين **Sabellian** بشأن الخلط بين الأقانيم .

الجوهر (٣) فحرى بنا ان نبتعد ونهرب من بدعة الخلط بين الأقاليم من جانب وبدعة تقسيم الجوهر من جانب آخر ، بل نعترف بلاهوت واحد لآب وابن وروح قدس كثلاثة اقانيم فنحصن انفسنا أمام محاربات كافة الهرطقات

— ٥ —

ولا يمكن اغفال ثرثرة ذوينا واخصائنا ، فهى ليست بأقل من الحملات التى تشن علينا من الخارج فضلا عن أنها تثقل كاهل الراعى بأعباء اضافية . فكثيرون يدفعهم حب الفضول الرخيص الى أن يشغلوا انفسهم بأمور ليس من السهل عليهم تفهمها ، والتى ان عرفوها لاتجديهم شيئا . وآخرون يطالبون الله بأن يقدم حسابا عن أحكامه ويقحمون أنفسهم فى فحص أعماق تلك الهوة العميقة التى يقول عنها النبى « أحكامك لجة عظيمة » (مزمور ٣٦ : ٦) وقليلون هم الذين يعنون بالسؤال عما يتعلق بالايمان ، ولا من يهتم بترجمة ايمانه الى أعمال وسلوك ، فالأكثرية يهتمون بالبحث فى أمور لايمكن الكشف عنها ، ومجرد فحصها يثير غضب الله . لأننا حين نصر على معرفة مالايريد الله كشفه لنا فاننا لانحظى بنتيجة — اذ كيف يمكن أن نحقق هذه المعرفة على غير ارادة الله ؟؟ وهؤلاء اذا ما أراد

(٣) أى اذا ميز الاقانيم على عكس السابليين ، كان عليه أن يتيقظ أمام خطأ الاريوسيين الخاص بتقسيم الجوهر أيضا .

انسان أن يثنيهم عن بحثهم فى مثل هذه الأمور غير المدركة سارعوا الى اتهامه بالغرور والجهل ، لهذا كان حريا بالراعى أن يكون حكيما حتى يبتعد عن الخوض فى مثل تلك الأسئلة غير المجدية دون أن يعرض نفسه للوم . وبالاختصار فان مواجهة هذه الصعوبات تحتاج الى قوة الحجة ، فمتى عدم الكاهن هذه المقدرة تعرضت أنفس رعيته (أعنى الضعاف منهم والفضوليين) الى مصير سفن تلاطمها الريح ...

— ٦ —

باسيليوس : اذا لماذا لم يشتاق بولس الرسول الى أن يكون كاملا فى صناعة الكلام ؟ وهو لم ينكر عدم اتقانه لها بل يعترف صراحة بذلك فى رسالته الى أهل كورنثوس (٢ كو ١١ : ٦ ، ١٠ : ١٠) الذين كانوا يتفاخرون بفصاحتهم .

ذهبى الفم : هذا هو نفس الأمر الذى أهلك كثيرين وجعلهم يتراخون فى دراسة ايمانهم ، لأنهم لما لم يستطيعوا بلوغ أعماق فكر الرسول وتفهم غاية كلماته ومعناها قضوا عمرهم نائمين متثائبين قانعين بهذا الجهل الذى كان الرسول بولس بريئا منه . فلنؤجل كلامنا فى هذا الموضوع الى الوقت المناسب ونتأمل الآن مايأتى : اذا سلمنا أن الرسول بولس كان عاميا فى هذا الأمر كما يدعون فماذا ينتفع رجال زماننا من ذلك ؟ لأنه كانت لديه قوة العمل

التى تفوق بكثير قوة الكلام . ان مجرد تواجد الرسول ، ولو بقى صامتا ، كان يرعب الشياطين . ولكن رجال اليوم لو اجتمعوا جميعا فى مكان واحد ورفعوا صلوات لانهاية لها وذرفوا دموعا غزيرة فلن يقدروا أن يفعلوا من المعجزات مافعله منديل بولس الرسول . أما صلواته ، فأقامت الميت (١ ع ٢٠ : ١٠) وصنع معجزات أخرى حتى كان الأممين يتخذونه الها (أع ١٤ : ١١) وقبل انتقاله من العالم استحق ان يختطف الى السماء الثالثة ويسمع مالم تسمع به أذن (٢ كو ١٢ : ٢ ـ ٤) أما رجال اليوم (ولا أشاء ان أذكرهم بسوء أو أن أهينهم بل أتعجب منهم) فكيف لاتقشعر أبدانهم حين يقارنون انفسهم بعملاق مثل هذا ؛ لأننا لو تركنا تلك المعجزات جانبا وتناولنا حياة هذا القديس المبارك وتمعنا فى حديثه الملائكى فاننا نجد هذا البطل ظافرا لامعا فى سيرته أكثر منه فى معجزاته . اذ كيف يمكن للمرء أن يصف غيرته وقوة احتماله ؟ وبماذا ننعت مخاطراته المترادفة ، واهتماماته المتصلة ، وانشغاله الدائم بالكنائس ، وتعاطفه مع الضعيف ، وأحزانه الكثيرة ، واضطهاداته غير العادية ، وميتاته اليومية ؟ وأى بقعة على الأرض ، وأى قارة أو بحر لم يشهد أعمال هذا الرجل البار ؟ بل حتى الصحراء عرفته لأنها كثيرا ما أظلته فى ساعات الخطر ، فقد واجه كل ألوان المحاربات وظفر بكل فن من الفنون،حتى لم تكن هناك نهاية لمحارباته وانتصاراته!!

ومع هذا فانى قد انتقصت من قدر هذا الرجل دون قصد منى ، لأن مآثره وفضائله تعلو على كل وصف ... ولكنى أسجل أمرا آخر يفوق جميع ما أوردته بقدر ما كان يتفوق هو على جميع أترابه : أنه بعد تلك المناقب وهذه الانتصارات العديدة تمنى أن يلقى فى جهنم ويسلم الى عقاب أبدى ان كان فى هذا ما يجعل اليهود ـ الذين كثيرا ما رجموه وخططوا لاعدامه ـ يخلصون ويرجعون الى المسيح (رو ٩ : ٣) . فمن من الناس أحب المسيح هكذا ؟ فهل يليق بنا اذن أن نقارن أنفسنا بهذا القديس ، بعد هذا الفيض من النعم التى وهبت له من فوق ، وبعد كل هذه الفضائل التى تحلى بها ؟! ومع هذا فانه لم يكن عاميا كما يعده البعض ، فالعامى فى تقدير الناس ليس فقط من لا يتقن الفصاحة بل من لا يتصدى للدفاع عن الايمان الصحيح .. أما القديس بولس فلم يزعم أنه كان عاميا فى المجالين وانما فى واحد منهما فقط ، فيقول انه كان « عاميا فى الكلام وليس فى العلم » (٢ كو ١١ : ٦) ... وحتى اذا فرضنا أن الرسول كان فقيرا فى الكلام وكان انشاؤه بسيطا الا أنه لم يكن اميا فى المعرفة ...

ـ ٧ ـ

والا فكيف أفحم اليهود القاطنين فى دمشق (أع ٩ : ٢٢) حينما لم يكن بعد قد بدأ يجرى المعجزات ؟ وكيف صارع اليونانيين وتغلب عليهم ؟ (أع ٩ : ٢٩) .. ولماذا أرسل

الى طرسوس ؟ أليس لأنه كان قوى الكلام فأحرج مقاوميه حتى أنهم لما لم يتحملوا مرارة الهزيمة دفعهم السخط الى السعى فى قتله ؟!! حينذاك لم يكن ـ كما سبق القول ـ قد بدأ يجرى الآيات ، ولا يمكن لأحد أن يقول أن الجماهير اعجبت به لأعماله الباهرة ... فهو فى ذاك الوقت كان ينتصر بقوة الاقناع فقط . ثم كيف باحث اليهود المنتصرين الذين كانوا فى انطاكية وأفلح فى ردهم ؟؟ والأريوباغى الذى كان يسكن اثينا أشد المدن تمسكا بعبادة الأوثان ... كيف تبعه هو وزوجته ؟ (اع ١٧ : ٣٤) .. ألم يكن هذا نتيجة الخطاب الذى سمعوه منه ؟؟ ... وكيف كان يعمل فى تسالونيكى وكورنثوس وافسس بل وفى روما ذاتها ؟؟ الم يقض اياما وليال بطولها فى تفسير الكتب المقدسة لهم ؟؟ وماذا نقول عن جداله مع الابيكوريين والرواقيين (اع ١٧ : ١٨) ؟؟ فلو أخذنا فى تفصيل جميع محاوراته ومخاطباته لاسهبنا فى كلامنا اسهابا زائدا . فاذا كان قد وضح أن بولس الرسول كان يستخدم الحوار والجدال قبل قيامه بصنع المعجزات أو بعدها ، فكيف يتجاسر انسان على أن يصف من كانت مواعظه ومحاوراته موضع اعجاب كل سامعيه بأنه كان عاميا ؟؟ ولماذا ظنه « الليكاؤنيين » انه كان هرمس ؟؟ (اع ١٤ : ١١) صحيح ان الاعتقاد فى أنه هو وبرنابا كانا آلهة قد نشأ عندما رأوا معجزاتهما ، لكن الاعتقاد بأنه كان هرمس لم يصدر عن المعجزة بل عن اقتداره فى الكلام ..

ولم فاق هذا الرسول باقى الرسل ؟؟ ومن اين ذاع خبره على كل لسان من اقصى الأرض الى اقصاها ؟ ... أليس هذا من قوة رسائله التى انتفع بها ليس المؤمنون المعاصرون له فحسب بل كافة المؤمنين منذ زمانه وحتى الآن بل والى مجىء المسيح ، لأن رسائله هى بمثابة سور شيد من الصخر واحاط كنائس العالم .. وهو كبطل شجاع يسبى كل عقل لطاعة المسيح نابذا الخيالات وكل علو يرتفع ضد معرفة الله (٢ كو ١٠ : ٥) وكل هذا يتم بواسطة الرسائل التى خلفها لنا ، والتى هى مملوءة بالحكمة الالهية . وكتاباته نافعة لنا فى دحض الآراء الفاسدة وتثبيت الايمان الصحيح وبلوغ حياة أفضل ..

ـ ٨ ـ

فاسمع ما يقوله فى وصيته الى تلميذه تيموثاوس : « اعكف على القراءة والوعظ والتعليم » (اتى ٤ : ١٣) ثم يوضح الثمار بقوله : « لأنك اذا فعلت هذا تخلص نفسك والذين يسمعونك أيضا » (اتى ٤ : ١٦) ثم يقول ثانية : « وعبد الرب لا يجب أن يخاصم بل يكون مترفقا بالجميع ، صالحا للتعليم ، صبورا على المشقات » (٢ تى ٢ : ٢٤) ثم يكمل قائلا : « وأما أنت فاثبت على ما تعلمت وأيقنت ، عارفا ممن تعلمت . وأنك منذ الطفولية تعرف الكتب المقدسة القادرة ان تحكمك للخلاص بالايمان الذى فى

المسيح يسوع » (٢ تى : ١٤ ، ١٥) ثم يقول : « كل الكتاب هو موحى به من الله ، ونافع للتعليم والتوبيخ ، للتقويم والتأديب الذى فى البر ، لكى يكون انسان الله كاملا (٢ تى ٣ : ١٦ ، ١٧) وفى توجيهاته الى تيطس بشأن اختيار الأساقفة يقول : « يجب أن يكون الأسقف بلا لوم كوكيل الله ... ملازما للكلمة الصادقة التى بحسب التعليم ، لكى يكون قادرا أن يعظ بالتعليم الصحيح ويوبخ المناقضين (تيطس ١ : ٧ ، ٩) ... فكيف يستطيع من هو عامى ــ كما يدعى أولئك المدعون ــ أن يفحم مناقضيه ويسد أفواههم ؟؟ ... ورب قائل يقول أن الرسول لم يقصد بهذه الوصايا الا الكهنة لأنهم بالتأكيد هم محور حديثه .. لكن اسمع الرسول يوجه نفس وصاياه الى العلمانيين أيضا فيقول فى رسالة أخرى لمن هم من غير الكهنة : « لتسكن فيكم كلمة المسيح بغنى ، وانتم بكل حكمة » (كولوسى ٣ : ١٦) وأيضا « ليكن كلامكم كل حين بنعمة مصلحا بملح ، لتعلموا كيف يجب أن تجاوبوا كل واحد » (كولوسى ٤ : ٦) ويوجه وصية عامة للجميع حتى يكونوا « مستعدين دائما » لمجاوبة كل من يسألهم عن سبب الرجاء الذى فيهم (١ بط ٣ : ١٥) . وأما أهل تسالونيكى فهو يوجه نظرهم قائلا : « عزوا بعضكم بعضا ، وأبنوا أحدكم الآخر كما تفعلون أيضا » (١ تى ٥ : ١١) وحين يتكلم عن الكهنة يقول : « أما الشيوخ المدبرون حسنا فليحسبوا

أهلا لكرامة مضاعفة ، ولا سيما الذين يتعبون فى الكلمة والتعليم » (١ تى ٥ : ١٧) فهذا هو كمال التعليم ان يقود المعلمون تلاميذهم بأعمالهم وأقوالهم الى الحياة المقدسة التى رسمها المسيح لهم . لأن القدوة وحدها لا تكفى لتوجيه الآخرين ــ ولست أقول هذا من عندى فهى كلمات المخلص نفسه لأنه يقول : « من عمل وعلم فهذا يدعى عظيما » فلو أن العمل كان تعليما لما كانت هناك ضرورة لاضافة الكلمة الثانية واكتفى بالقول « من عمل » فقط . أما وقد فصل بينهما فثابت انه يريد أن يؤكد أن الأعمال شىء والتعليم شىء آخر ، وأن أحدهما يحتاج الى الآخر . ولنسمع أيضا الى ما يقوله الى قسوس أفسس : « لذلك أسهروا متذكرين انى ثلاث سنين ليلا ونهارا لم افتر عن أن أنذر بدموع كل واحد » (أع ٢٠ : ٣١) . فما حاجته الى الدموع مع الانذار بالكلام مادامت حياته كرسول كانت مثالية ؟؟ ان قداسة حياته قد تكفى لاقناع اناس يحفظون الوصايا ، لكنى لا أستطيع القول أن العمل وحده يكفى لاتمام كل شىء .

ــ ٩ ــ

فاذا قام نزاع وجدال حول الأمور العقائدية وتسلح كل بأسلحته من نفس الكتاب المقدس ، فهل تكفى سيرة اى انسان للبرهنة على شىء ؟؟ وما فائدة النسك والتقشف

ان سقط الانسان بعد تدريباته الشاقة فى بدعة من البدع، وانشق من جسد الكنيسة بسبب جهل الكاهن بالنقاش والحوار (وهى كارثة عرفت كثيرين عانوا بسببها) فاية جدوى عادت عليه من طول صبره ؛ لا فائدة عادت كما انه لا جدوى تذكر عندما يكون الانسان ايمانه صحيحا ولكن سيرته فاسدة . من ثم فانه بسبب هذا يلزم لمن تقلد تعليم الآخرين ان يتدرب على مثل هذه الجهادات ، لأن الرعية عندما ترى قائدها مغلوبا لا يقدر ان يجاوب مناقضيه ، لا ينسبون انهزامه الى ضعفه بل الى عدم سلامة عقيدته وهكذا ينزلق كثيرون الى الهلاك بسبب عدم خبرة الراعى ... وربما يشكون فيما كانوا يؤمنون به من قبل ... كم هى شقاوة هذا الراعى ، وكم هى مخيفة النار التى يضعها على راسه المسكينة نظير كل نفس يضيعها هكذا ... واما انت فلا تحتاج الى أن تتعلم منى هذا لانك عالم به جيدا ... فان كنت أحرص الا اكون سببا فى هلاك مثل هذه النفوس والا اسبب لنفسى عقابا أشد من المذخر لى هناك فى الحياة الأبدية أفيكون هذا كبرياء منى وغرورا ؟

الكتاب الخامس

أولا ـ الكرازة تحتاج الى درس وجهد كبيرين .

ثانيا ـ من يتصدى لهذا العمل يجب أن يرفض المديح ، وأن يكون متمكنا من الخطابة .

ثالثا ـ اذا لم تتوفر لديه هذه القدرات فلن يستطيع خدمة الشعب .

رابعا ـ فوق كل شيء ينبغي أن يطرح الأحقاد والقيل والقال .

خامسا ـ المتمكن من الخطابة والوعظ يحتاج الى الدرس أكثر من غير المتعلم .

سادسا ـ يجب الا يستهن بحكم الجمهور ، أو يبالغ فى التعلق به .

سابعا ـ يجب ألا يرتجى من كلماته سوى مرضاة الله وحده .

ثامنا ـ الذى لا يرفض المديح يعانى آلاما كثيرة .

لقد أوضحنا بما فيه الكفاية كم يحتاج المعلم فى نضاله من أجل الحق الى مهارة وخبرة . ولى مع جملة ما ذكرت أمر ينبغى أن أورده بسبب ما ينشأ عنه من مخاطر لاحصر لهـا ..

هذا الأمر هو الجهد العظيم الذى يبذل فى اعداد العظات التى تلقى على مسامع الجماهير . وأول ذلك ان غالبية السامعين لا يهتمون بأن يكون سلوكهم كسلوك التلميذ نحو معلمه ، بل يتعدون دورهم معطين انفسهم حق الحكم الذى يحكم المباريات الرياضية .. وكما أن الجماهير فى هذه ينقسم الى شيع يتحمس بعضها لفريق وبعضها للآخر ، هكذا ينقسم الناس بالنسبة للوعاظ الى فرق بعضها يؤيدون هذا وآخرون يفضلون الاستماع الى ذاك . وليس هذا هو المستهجن فحسب بل هناك أمر آخر لايقل عنه قبحا ، لأنه متى لجأ أحد الوعاظ الى الاقتباس فى عظاته من كلمات غيره فانه يتعرض للتعيير والاحتقار أكثر مما يتعرض له سارق المال . بل وكثيرا مالا يكون قد استعار من كلام غيره ، ولا يعدو الأمر أن يكون مجرد اشتباه ومع هذا فهو يعانى ما يعانيه اللص ..

فالواعظ اذن يحتاج الى سمو فى الفكر يفوق حقارتنا لكى يقود الشعب الى طريق أفضل للاستماع ، فيتابعونه

ويستجيبون له ... ولا سبيل الى بلوغ ذلك الا بوسيلتين : الازدراء بالمديح والقدرة على الوعظ الجيد .(١)

— ٢ —

لانه ان افتقر الى احد هذين العنصرين اصبح العنصر الآخر غير نافع ، لأنه متى ازدرى الواعظ بالمديح ولكن لم يتمكن من أن يعلم بحسب كلام الكتاب « ليكن كلامكم كل حين بنعمة مصلحا بملح » (كولوسى ٤ : ٦) فقد صار محتقرا من الشعب . وان نجح كواعظ لكن غلبه حب المديح فالضرر يلحقه كما يلحق بشعبه ، لأنه بسبب اهتمامه بالمديح يحرص ان يتكلم بهدف الارضاء وليس الافادة . وكما ان الذى لا يتقن الكلام لا يفوز برضا الشعب ، وفى الوقت عينه لا يقدم لهم شيئا يذكر لأنه ليس لديه ما يقوله ، هكذا من يسيطر عليه حب المديح فانه رغم قدرته على تقديم خدمات جليلة للشعب ، فان عوض ذلك يقدم لهم الغذاء الذى يروقهم مفضلا أن يشترى بذلك ضجة الهتاف .

(١) كانت عظات ذهبى الفم كثيرا ماتقاطع بالتصفيق ، الامر الذى كان هو يوبخه بعنف .

— ٣ —

لذلك فان أفضل الكهنة هو من تمكن من الناحيتين ، بحيث لا تطغى احدهما على الأخرى . لأنه اذا وقف بين المصلين ليعظ بكلمات يقصد بها اثارة الرهبة فى قلوب المتهاونين ، ثم تعثر وتوقف وأحمر خجلا لقلة بضاعته ، ففى الحال تذهب ثمار كلامه هباء ... لأن الذين كان يزجرهم ... يلجأون الى معايرته والتهكم من جهله ، ظانين أنهم يسترون بذلك عيوبهم . من ثم ينبغى له أن يدرك قدر هذين العنصرين كى يتناولهما بحسب الحاجة .. لأنه متى كان بغير لوم فى أعين الجميع ، فانه يستطيع بماله من سلطان ان يعاقب أو يصفح عمن هم ضمن رعيته .. والكمال الروحى لا يتمثل فى ازدراء المديح فحسب بل ينبغى ان يزدرى بأشياء أخرى ..

— ٤ —

والأشياء الأخرى التى يلزم أن يزدرى بها هى :

الوشاية والحقد والحسد ، لأنه لا يكفى عدم خوف الراعى أو صبره عما يقال عنه من كلام شرير بغير حق .. بل ينبغى الا يهمل ذلك رغم زيف الكلام .. وجميل به أن يحاول اخماد المثالب فورا . لأنه ليس شىء يزيد فى انتشار خبر شرير او صالح مثل الخارجين عن النظام ، لأنهم بحكم

تعودهم السماع ونقل الكلام بغير ترو أو تحقيق يرددون عشوائيا كل ما يصادفهم ، بغض النظر عن مدى صدقه . لهذا لا يسوغ تجاهل الشعب ، بل يجب المبادرة الى حسم ظنونهم وهى بعد فى مهدها ومحاولة اقناع المشتكين عليه مهما كانت صفاتهم ، دون أن يتركهم لظنونهم الردية ، اما ان فعل الكاهن كل هذا دون جدوى فحينئذ يجب أن يتركهم ولا يعبأ بهم .. لأنه متى تأثر الانسان بهذه العوارض فلن يقدر فى وقت من الأوقات ان يقدم عملا طيبا أو يأتى بأمر عظيم ، لأن اليأس والاهتمام الدائم كفيلين بتدمير القدرات العقلية واضعافها غاية الضعف . هكذا حرى بالكاهن أن يتصرف نحو رعيته كما الوالد نحو أصغر أطفاله . وكما أن الوالد لا يأبه لاهانات أطفاله او ضربهم أو بكائهم ، هكذا يجب أن يكون حال الراعى مع رعيته فلا يعبأ بمديحهم ولا يكتئب ان لاموه بغير سبب . على أن هذا الأمر صعب يا صديقى العزيز ، بل اظن أيضا انه من المستحيل ألا يبتهج انسان بسماع المديح حين يواتيه النجاح . ومن يسره المديح فانه يتوق الى سماعه ، وما دام يشتهيه فانه يتكدر بالضرورة اذا افتقده . لأنه كما أن المغرمين بجمع المال يحزنون ان فقدوه .. والذين تعودوا حياة الترف لايحتملون حياة التقشف ... هكذا عشاق المديح والتصفيق فانهم يكتئبون ليس فقط حين يتهمون باطلا بل متى تناقصت قصائد المديح والتقريظ ، ويصبحون كمن اصابتهم مجاعة

يشعرون معها بالضياع ، ولا سيما ان كانوا قد تعودوا على سماع المديح .. فكم من المضايقات تحل بالذى يدخل الى ميدان الوعظ ولديه مثل هذه الرغبات ؟!! لأنه كما أن البحر لا يمكن أن يكون بلا أمواج هكذا نفس محب المديح لا يمكن أن تخلو من الهموم والأحزان .

— ٥ —

لأنه متى كان الواعظ ذا مقدرة عالية ،.. فانه سيخسر هذه المقدرة اذا لم يعمل على نموها بالممارسة والتدريب المتصل ، حتى انه يقال ان التعب الذى يبذله المثقف أعظم من التعب الذى يبذله غير المتعلم .. لأن خسران المثقفين أعظم بمقدار الفرق بين ثقافة كل منهما . لأن غير المتعلمين لا يلامون اذا لم يقدموا شيئا يستحق التقدير ، أما المتعلمون فانهم اذا لم يقدموا دواما مادة تفوق الظن بهم فما أكثر اللوم الذى يلحقهم من كل جانب . وغير المتعلمين يمدحون لأقل عمل يقدمونه أما جهود الحكماء فاذا لم تكن ممتازة فهى تقابل بكثير من متصيدى الأخطاء . لأن المستمعين يقيمون من أنفسهم حكاما ليس فيما يقال فقط بل فى مستوى القائلين ومقدارهم ، فمن ثم متى برع انسان وفاق جميع أقرانه فى الخطابة فانه دون الباقين يحتاج الى دراسة كادحة واجتهاد متواصل .. فاذا لم تتناسب عظاته مع عظم شهرته ، فلن يفوز الا بالتهكم والانتقاد دون

ان يلتمس له عذر .. مع انه لا يعدو أن يكون بشرا لايمكن ان يبقى على حال واحدة على الدوام ، أو يواتيه النجاح فى كل الأحوال ، بل من الطبيعى أن يهفو أحيانا ويبدو فى اقل من مستوى قدراته أحيانا أخرى ، لكنهم لا يقدرون شيئا من هذه الاعتبارات ويحاسبونه على أخطائه كأنهم يحاكمون ملاكا لا بشرا . فمن شأن الانسان أن يتجاوز عن فضائل ابن جنسه مهما كثرت أو عظمت ، وان بدا منه عيب ، ولو كان عرضيا أو حتى فى أوقات متباعدة ، فحالا ما يلاحظه ويذكره دائما .. وهكذا كثيرا ما تقلل هذه الأمور التافهة والصغيرة من عظمة أعمال كبيرة .

- ٦ -

هكذا ترى ايها الصديق العزيز أن القدير فى الوعظ يحتاج الى الدرس أكثر من غيره . ومع اجتهاده يحتاج أيضا الى سعة صدر وقوة احتمال أكثر من أى انسان آخر، لأن هناك دائما من يهاجمونه يدفعهم فى هذا غرور وعدم احساس ... ويتحتم عليه هو ان يحتمل حقدهم بنبل ، لأنهم اذ لا يستطيعون اخفاء كراهيتهم المرة التى يضمرونها له بغير اعتدال يشتمونه ويوبخونه ويفترون عليه فى الخفاء ويشهرون به علانية .. والنفس التى تتألم وتثور من كل ما ذكرنا ، لا تلبث أن تفسد من الألم والحزن .. وعلى الواعظ أن يهيء نفسه لمواجهة مثل هذه الضيقات بسعة

صدر ، وأن يغفر لمرتكبيها ، ويبكى من اجل فاعليها باعتبارهم مساكين يستحقون الشفقة . لانه متى قام فنان بارع ومشهود له برسم لوحة والابداع فيها ، ثم جاء جاهل واستهزأ بها فان الفنان لا يكتئب ولا ينفعل .. ولو جاء من لا يفهم فى الفن ولا يتذوقه واستحسن لوحة حقيرة فلا يجوز للفنان ان ينساق وراء حكم الجاهل .

- ٧ -

لأن الفنان الفاضل يكون ناقدا لانتاجه ، وهو الذى يقرر ان كان جيدا أو رديئا دون اعتبار لما يصدره غير الفنيين من أحكام وآراء خاطئة وغير فنية . فحرى اذن بمن يؤتمن على التعليم الا يعبأ بمدح الناس أو يتخاذل بسبب كلامهم، بل يعنى بأن تكون عظاته وأقواله من اجل مسرة الله (وليكن هذا وحده رائده وهدفه وليس استجداء المدح والاعجاب) فان مدحه الناس لا يتأثر ، واذا لم يمدحوه فلا يسعى هو الى ذلك ولا يكتئب ، اذ يكفيه عزاء ان يشعر انه يدبر ويقوم بالتعليم من أجل مسرة الله .

- ٨ -

فلو جرفته شهوة المديح فلن يجنى من اعماله ثمارا ولا ينفع من قدرته على الوعظ . لأن النفس غير القادرة على احتمال الانتقادات الباطلة ، تغلبها الكآبة وتطرح كل

اهتمام بالوعظ . من اجل هذا فانه من الضرورى أن يلزم نفسه بتدريب على الازدراء بكل انواع المديح . لأنه لا يكفى أن تعرف الوعظ لكى تحافظ على القدرة عليه ان لم تطرح حب المديح . فان اراد انسان أن يتعمق فى البحث فسيجد أن حاجة الواعظ غير الموفق الى فضيلة اللامبالاة بالمديح ليست بأقل من حاجة الواعظ البارع اليها . وان الضرورة تدفعه الى ارتكاب كثير من الأخطاء بسبب خضوعه لرأى العامة ، لأنه اذا عجز عن الارتفاع الى مصـــاف الوعاظ المشهورين فانه لا يكف عن اغتيابهم وادانتهم بغير سبب ، ويرتكب أعمالا مشينة كثيرة ، بل يجسر على اى شىء ولو ادى الى تدمير ذات نفسه من أجـــل أن يهوى بهم الى مستوى تفاهته . وفضلا عن هذا فانه يكف عن جـده واجتهاده فى العمل ، ويترك عقله يذهب فى سبات عميـق طالما انه لم يفز من وراء كده الكثير بما يشبع نهمه فى المديح. لأن الفلاح متى كان عمله فى أرض بور أو صخرية ، فانه قد يكف عن مواصلة حرثها مالم يسيطر عليه اهتمام خاص بالأمر أو يخشى من مجاعة تتهدده . لأنه ان كان القادرون على الوعظ بمقدرة كبيرة يحتاجون الى مران دائم لحفظ هذه الموهبة فمن لا يملك شيئا فى هذا المجال كم يلاقى من صعوبات ومتاعب ؟ وكم يعانى من قلق حتى يمكنه جمع قليل من الافكار ؟ وان كان أحد افراد الاكليروس الذين تحت سلطانه ، والذى يعتبر فى مركز اقل يتميز عليه فى

القدرة على الوعظ ، فكم يحتاج الكاهن الى حكمة يتحلى بها من أجل الا يتملكه الحسد أو ينتابه اليأس ؟ لانه كى يكون الانسان فى مركز سام ثم يتفوق عليه من هو دونه فى المرتبة ويحتمل هذا فى نبل ، فان هذا ليس فى طاقة النفس العادية أو فى طاقتى بل هو من عمل النفس الماسية. فان كان هذا الكاهن صبورا ومتواضعا ، كانت معاناته لمثل هذا الموقف محتملة .. أما ان كان جســـورا متفـاخرا ومتكبرا ، فانه سيشتهى الموت يوميا طالما أن هناك من يمرر حياته ويهينه مواجهة ويسخر منه فى غيابه ويغتصب الكثير من سلطانه وهيبته . أما من يستمتع بطلاقة فى الوعظ فهو يشعر بسلام عظيم فى كل هذه الظروف نتيجة اصغاء الجماهير اليه والتفافهم حوله . أما عرفت مقدار الشغف بالوعظ الذى سيطر على نفوس المسيحيين فى هذه الأيام ؟ وأن خدام الكلمة يحظون بالتكريم ليس بين الكفار فقط بل بين أهل الايمان ؟ فكيف يستطيع انسان أن يحتمل عارا هذا مقداره اذ يعلم انه عندما يعظ يصمت الجميع على مضض متلهفين الى نهاية عظته كما يتطلعون الى الراحة بعد التعب ، بينما يصغون الى آخر بشغف مهما طالت عظته ، ويأسفون اذا اقترب من ختام عظته بل يغضبون عند نهاية حديثه !!! فاذا كانت هذه الأمور تبدو فى نظرك هينـة يمكن الاستهانة بها فانما يرجع هذا الى عدم خبرتك .. أما هى فكافية لأن تخمد الحماس وتصيب قدرات العقل

بالشلل مالم يخل الانسان نفسه من كافة العواطف الانسانية ويدرس كيف يشكل سلوكه بحسب الأسلوب الروحى الذى لا يتاثر بالحسد او بحب المجد والشهرة او بأى شعور آخر مريض . فان وجد مثل هذا الرجل الذى يستطيع ان يقمع هذا الوحش الذى لا يمكن اقتناصه أو استئناسه ، فانه ينبغى عليه ان يقطع رؤوسه العديدة أو على الأقل لا يدعها تنمو ... أما الذى لم يخلص نفسه من هذا الوحش فانه يجلب على نفسه محاربات مختلفة وهياج دائم ويأس كئيب .

الكتاب السادس

١ ـ الكهنة مسئولون عن تقديم حساب عن خطايا غيرهم .

٢ ـ الكهنة أشد احتياجا من الرهبان الى الحذر والاحتراس .

٣ ـ الراهب يتمتع بهدوء الفكر أكثر من راعى الكنيسة .

٤ ـ الكاهن يؤتمن على جميع المسكونة فضلا عن واجباته الأخرى الجسيمة .

٥ ـ ينبغى أن يتكيف الكاهن مع كل الظروف .

٦ ـ حياة النسك بالنسبة للكاهن ليست علامة على قوة الاحتمال وحسن تدبير الشعب .

٧ ـ لا يستوى نسك من يعيش منفردا مع من يعيش فى العالم .

٨ ـ الذين يعيشون حياة الوحدة ينمون فى الفضائل بأسهل من الذين يهتمون بالكثيرين .

٩ ـ لا ينبغى أن يستهين المرء بظنون العامة حتى ولو كانت على غير أساس .

١٠ ـ عقاب آثام الكاهن أعظم من عقاب آثام العلمانيين .

١١ ـ أمثلة ونماذج للآلام والمخاوف التى يتوقعها الكاهن .

١٢ ـ محاربات الشيطان أشد قسوة من المحاربات الأخرى .

ـ ١ ـ

هذا هو حالنا هنا كما سمعت . لكن ماذا يكون حالنا فيما بعد وكيف سنحتمل حين نضطر أن نقدم حسابا عن كل ما أؤتمنا عليه ؟؟

لن يقتصر عقابنا على ما نلقاه من خزى وعار بل أن عذابا أبديا ينتظرنا بحسب قول الرسول « أطيعوا مرشديكم واخضعوا لأنهم يسهرون لأجل نفوسكم كأنهم سوف يعطون حسابا » (عب ١٣ : ١٧) . وان كنت قد أوردت هذا القول فيما ذكرته من قبل ، الا أنى لن أغفل عنه الآن لأن هذا الوعيد يؤرق نفسى باستمرار . فان كان الذى يعثر واحدا فقط يكون من الخير له أن « يعلق فى عنقه حجر الرحى ويغرق فى لجة البحر » (مت ١٨ : ٦) وان كان الذين يعثرون الاخوة ويتعبون ضمائرهم الضعيفة يخطئون الى المسيح (١ كو ٨ : ١٢) ، فالذين يهلكون لا واحدا ولا اثنين أو ثلاثة بل نفوسا عديدة فماذا يصيبهم ؟ وأى جواب يقدمونه عن ذلك ؟ لن ينفع هناك اعتذارهم بعدم الخبرة او الجهل ، أو الاحتجاج بأنهم أكرهوا على قبول الكهنوت . قد يكون الأمر ميسورا لأحد أفراد الرعية أن يتعلل بمثل هذه الحجج عن خطاياه ، أما الكاهن فلا يستطيع ان يحتج بها عن خطايا رعيته . لأن الكاهن الذى أقيم لتصحيح أخطاء الآخرين وتحذيرهم من محاربات أبليس المنتظرة ، لن

يستطيع أن يحتج بجهله كما لا يستطيع أن يقول : ماسمعت دق الطبول أو شعرت بالحرب .. لأنه ــ كما يقول حزقيال النبى ــ لهذا الأمر جلس ، وله وحده أقيم ، وهو أن يبرق للآخرين ليحذرهم من الأخطار الداهمة ، لذلك لا فرار من القصاص حتى ولو كان الهالك واحدا فقط . لأنه اذا رأى الحارس المعركة وشيكة ولم يبرق للشعب منذرا ، ثم اشتعلت الحرب وهلكت نفسا واحدة ، فالنفس التى هلكت تكون قد اخذت بذنبها أما « دمه فمن يد الرقيب أطلبه » (حز ٣٣ : ٦) .

- ٢ -

كف اذن عن توريطى فى عقوبة لا مفر منها .. لأن حديثى لايتصل بقيادة جيوش أو ممالك أرضية ، ولكن بوظيفة تتطلب فضائل الملائكة . فنفس الكاهن ينبغى أن تكون أنقى من شعاع الشمس ، حتى لايهجره الروح القدس ، وحتى يستطيع أن يقول مع بولس « فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فى » (غلا ٢ : ٢٠) .

فان كان الذين يسكنون البرارى ويعتزلون المدن وأسواقها وضجيجها ويسعدون بالهدوء والسلام لا يطمئنون الى امكانية دوام هذه الحال، فيلزمون ذواتهم بما لايحصى من التدريبات ، ويسيجون حول أنفسهم من كل جانب ، ويتعلمون كيف يتكلمون وكيف يسلكون

حرص ، لكى يتمكنوا بأقصى طاقة بشرية أن يتقربوا الى الله بداله وطهارة ــ فكم تظن الكاهن يحتاج من الجهاد حتى يحرر نفسه من كل دنس ، ويحفظ جماله الروحى بغير شائبة ؟؟ .. لا شك أنه يحتاج الى نقاوة أكثر مما يحتاج اليه سكان البرارى ، فهو معرض أكثر منهم الى مغريات يمكن أن تدنسه ، مالم يتسلح ضدها ، ويواظب فى تيقظ وجهاد شديدين على قمع ذاته ...

... فالأمور التى تستخدمها النساء فى الاغراء ، كافية أن تشوش العقل ، مالم تتصدى لها النفس بتحكم شديد . وان البلبلة التى تثيرها هذه الأمور ليست مستغربة ، لكن الشيء الذى يدعو الى العجب والحيرة هو مهارة ابليس فى الايقاع بالناس الذين نجوا من فخاخ هذه المغريات ليهلكهم بما يناقضها !! ...

- ٣ -

لقد حدث فعلا أن بعض الرجال الذين أفلحوا فى النجاة من هذه الفخاخ سقطوا فى أمور أخرى تختلف عنها كثيرا ، لأن مظهر السلوك البسيط (لدى المراة) ومظاهر الفقر والحرمان ، قد تستميل الناظر فى البداية الى أن يرثى لها ثم تقوده الى هلاك كلى . وكثيرون ممن كانوا قد هربوا من الفخاخ الأولى المنصوبة فى طريق الاغراء ، يسقطون بسهولة فى الأمور الأخرى التي تختلف اختلافا بينا عنها ثم يهلكون .

فاذا كان بواسطة الغنى أو الفقر ، الجمال أو القبح التزين أو اهمال المظهر ، بفنون الاغراء التى تستخدم المرأة او بالأشياء التى تختلف عنها .. قد سقط قو بسهولة وهلكوا نتيجة ماتنشئه فى نفس ناظرها من حرب فكيف يمكن أن يتنفس الكاهن وقد احاطت به كل هذ الفخاخ ؟؟ وأى ملجأ يمكنه أن يلوذ به لكى يحفظ نفسه بغير قلق من الأفكار الدنسة ؟؟

والآن اتعرض للمجد الباطل الذى هو سبب لعدد لايحصى من الشرور . فالخطايا التى تأتى عن طريق النسيا تدنس الطهارة ، وقد تهلك الرجل اذا لم يسهر على مراقبة نفسه من مثل هذه المحاربات .. أما الكرامة التى يبديها الرجال فما لم يتقبلها الكاهن بسمو الفكر فانها قد تقوده الى نوعين من الأمراض : طلب المزيد من المديح ، والكبرياء اللاشعورى . وأما الذين يؤيدونه ويكرمونه فهو يضطر ان يخضع لهم ولأجل هذه الكرامات فانه يشمخ على من دونه ، وينحدر الى هوة الكبرياء .

هكذا من يعيش وسط العالم ، يحتاج بالضرورة الى يواجه ليس هذه الفخاخ فحسب ، بل اعظم منها وا خداعا .. اما الذى يسكن البرارى فهو يتحرر منها . و اذا عرض فى فكره فى بعض الأوقات هاجس قبيح ، و له صورة مما ذكرنا ، فهذا الخيال يكون ضعيفا خاف ويخمد سريعا اذ لايجد من الخارج الوقود الذى يلهبه

فالراهب المنفرد ليس لديه سوى نفسه يخشى عليها . وحتى ان اضطر الى الاهتمام بآخرين ، فانه من السهل حصر عددهم ، الذى مهما بلغ فهو أقل عددا ممن يلتزم الكاهن برعايتهم فى الكنيسة ، والاهتمام بهم أخف من اولئك ليس لقلة عددهم فحسب ، بل لكونهم قد تحرروا من اهتمامات العالم ، وليس مايشغلهم من شئون الزوجات أو الأولاد أو خلافه ، وهكذا يكونون اكثر طاعة لرؤسائهم ، واذا كانت عيشتهم مشتركة فانه بنظرة واحدة يمكن التعرف على هفواتهم فيسهل اصلاحها ، ذلك لأن الاشراف الدائم للمعلم هو عون كبير للتقدم فى الفضيلة .

— ٤ —

لكن الغالبية العظمى من أفراد الشعب الذى يرعاه الكاهن تشغلهم اهتمامات الحياة ، مما يجعل اتمامهم لواجباتهم الروحية أبطأ . ومن ثم كان من الضرورى أن يقوم المعلم يوميا ببذر بذار الكلمة ، لكى بمداومة السماع يثبت التعليم عندهم . لأن الثراء الفاحش ، والسلطان الزائد ، والتراخى الناشىء عن الترف ، وما شاكل هذه الأمور ، اذا اتفقت واجتمعت خنقت البذور . وكثيرا ماتقوم الأشواك الكثيفة بمنع البذور من أن تصل حتى الى سطح الأرض . والضيقات الكثيرة والفقر الشديد والاضطهاد الدائم وغيرها من الأمور المتشابهة والتى

تناقض الأمور الأولى السابق ذكرها ، تصرف العقل عن الانشغال بالروحيات .

اما عن خطايا الكاهن وأثامه فلا يظهر له منها الا القليل ، أما الباقى الكثير منها فلا يخطر على باله منه شىء .

ورغم أن علاقات الكاهن بشعبه تكتنفها صعوبات كثيرة ، فانه اذا فحص علاقته بالله فانه سيكتشف أنها أضعف ، لأن الكهنوت يحتاج الى اجتهاد أعظم وأشمل . لأن من دعته الضرورة أن يكون سفيرا عن مدينة بأسرها ــ ولا أقول عن مدينة فحسب ، بل العالم أجمع ــ يضرع الى الله كى يصفح عن خطايا الجميع ، ليس فقط الأحيـاء منهم بل الراقدين أيضا ــ فأى الأنواع من الرجال ينبغى أن يكون ؟! أما أنا فلا أتصور أن دالة موسى وايليا تكفيان لمثل هذه الضراعة .

فالكاهن ، لأنه أوتمن على العالم كله وصار أبا لجميع الناس ، يتقدم الى الله متوسـلا فى الصلوات الخاصـة والعـامة من أجل رفع الحروب فى كل مكان ، واخمـاد الاضطرابات ، ملتمسـا السلام والهدوء لكل نفس ، والشفاء للمرضى .. لهذا لزم أن يتفوق فى كل فضيلة على من يصلى من أجلهم ، بمقدار مايتفوق الحكام على رعاياهم . والذى نراه يستدعى الروح القدس ، ويقدم القرابين المقدسة ، ويتقرب على الدوام الى الله .. فبأى نوع من الفضـائل

يلتحف ؟ وكم من الطهارة والنقاوة تطلب منه ؟ ثم تأمل مقدار الطهـارة التى يجب أن تتصف بها اليدان اللتـان تخدمان هذه الأمور ، ومقدار البر الذى ينبغى أن يتصف به اللسان الذى ينطق بكلام الشريعة .. كم يتطلب هذا من الكاهن طهارة وقداسة ، حتى يكون أهلا لأن تطوف حوله الملائكة والأجناد السمائية التى تملأ كل أرجاء الكنيسة تكريما للذبيحة الموضوعة على المذبح . وهذا يمكن ان ندركه من نفس الطقوس التى تمارس فى القداس الالهى . وفضلا عن هذا فقد سمعت بنفسى عن قسيس شيخ وقورتعود أن يرى رؤى ، وقد روى أنه استحق أن يرى منظرا يشـبه ماوصفناه الآن .. وقال أنه رأى فى احداها ــ وبمقدار ما أمكنه أن يمد بصره ــ سحابة من الملائكة فى ملابس براقة يحيطون بالمذبح وينحنون كما يليق بجنود فى حضرة مليكهم . كما روى آخر ــ ليس كناقل قصة بل كمستحق أن يكون شاهد عيان ــ أن الناس الذين على وشك الانتقال ، متى تناولوا من الأسرار المقدسة بضمائر نقية ، عند آخر نسمتهم تزفهم الملائكة وتحملهم تكريما لذاك الذى تناولوه .

أفلا تشعر أنت اذن أن قربت نفسا غير مستحقة الى هذا السر الجليل ، أو رفعت الى الكهنوت شخصا فى رداء مدنس طرحه يسوع خارجا من بين المتكئين ؟! (مت ٢٢:١٣)

ان نفس الكاهن ينبغى أن تتلألأ كشعاع الشمس لتنير المسكونة كلها . أما نفسى فتخيم عليها سحابة مظلمة بسبب

ضميرى الشرير ، مما يجعلنى أنسحق دواما غير قادر ان ارفع بصرى الى الله . واذا كان الكهنة هم ملح الأرض (مت ٧ : ١٣) فمن ذا الذى يحتمل قلة فهمى وانعدام خبرتى فى كل الأمور ، اللهم الا أنت الذى شملتنى بمحبة فائقة . فان الكاهن لا يكفيه الاتصاف بالطهارة ليكون أهلا لهذه الخدمة ، بل يحتاج أيضا الى أن يكون حكيما ومحنكا فى امور شتى ، وان يكون خبيرا بشئون العالم ، ليس بأقل من القوم المتصرفين فيه . وفى الوقت نفسه يكون متحررا من العالم أكثر من الرهبان سكان البرارى . لأنه طالما تدعوه الضرورة الى مخالطة المتزوجين وذوى الأبناء والخدم والثروة ، ومن يشغلون المناصب العامة ومن لهم نفوذ ... هكذا ينبغى أن يكون هو أيضا متعدد الجوانب . وأقول متعدد الجوانب ولا أقول ذا كلف أو ملق أو رياء ، بل على درجة كبيرة من الحرية والثقة بالنفس والتضحية بالمصالح الشخصية ، حازما يجمع بين الرفق والشدة ، لأنه يعسر أن يعامل أفراد رعيته بأسلوب واحد ، كما أن الطبيب لايستعمل خطة واحدة لعلاج كل مرضاه ، ولا ينهج الربان منهجا واحدا فى مواجهة الانواء ، لأن عواصف كثيرة مختلفة تحيط بالسفينة التى يدبرها الكاهن ، وهى لاتصادمها من الخارج فحسب بل تأتى من الداخل أيضا ، فمن ثم تدعو الحاجة الى اتضاع كثير وحذر ، وكل هذه الأمور المتباينة يقصد بها هدف واحد هو مجد الله وبناء الكنيسة .

— ٥ —

عظيم هو جهاد الرهبان ، وكثير هو تعبهم . ولكن ان قارن انسان جهادهم بما ينطوى عليه الكهنوت الحقيقى من مشاق ، فانه سيجد الفارق بينهما واسعا بقدر ماهو بين الملك واحد افراد الرعية . لأنه وان كان جهاد الراهب كبيرا بالحقيقة ولكن هذا الجهاد يشترك فيه الجسد والروح معا ، والجانب الأكبر منه يتم بقدر ماتسمح حالة الجسد ، فان وهن وضعف بقيت الرغبة كامنة دون أن تخرج الى حيز التنفيذ . لأن النسك الزائد فى الأصوام الكثيرة وافتراش الأرض والسهر والامتناع عن الاستحمام وغير ذلك من التدريبات الخاصة بتذليل الجسد ، تمضى جميعها بلا فائدة اذا كان الجسم الذى يراد ترويضه ضعيفا . اما بالنسبة للكهنوت فنقاوة الروح تأتى فى المرتبة الأولى . والأمر لايحتاج الى صحة بدنية يمارس بها الكاهن فضيلته ويظهر قدرته على اذلال جسده . لأنه ماذا تفيدنا قوة الجسم اذا أردنا الا نكون متكبرين عنيدين ، أو أردنا أن نكون متيقظين وعفيفين ومتسربلين بباقى الفضائل التى رسمها بولس الرسول للكاهن الكامل ؟!! ..

— ٦ —

فكما أن السحرة والحواة يحتاجون الى عدد كبير من البكر والحبال والخناجر لكى يمارسوا العابهم ، وكما

يختزن الفيلسوف كل وسائل فنه داخل عقله بغير حاجة الى أجهزة خارجية هكذا الحال فيما نحن بصدده الآن . فالراهب يحتاج الى صحة بدنية ، ومكان يناسب منهج حياته بحيث يوفر له الهدوء المطلوب ...

اما الكاهن فلا يحتاج الى شيء من هذه لسد اعوازه ... طالما انه يحفظ ملكاته ومواهبه فى خزائن عقله . فان اعجب انسان بقدرة الكاهن على الانفراد والوحدة بعيدا عن مخالطة عامة الناس ، فأنا أرى أن مثل هذا السلوك هو دليل الصبر والثبات ، الا أنه ليس علامة كافية على كمال النفس. لأن الذى يجلس على المركب فى الميناء لايعطى الدليل على براعته وفنه ، مالم يتمكن من أن يقود سفينته بسلام وسط البحر ، وحينئذ لايقدر احد أن ينكر مقدار تفوقه .

— ٧ —

ولن يكون هذا أمرا غريبا أن نرى الراهب الذى يعيش بمفرده لايضطرب ولا يسقط فى خطايا كثيرة أو كبيرة ، لأنه لايواجه الأمور التى تزعج عقله وتثيره . اما الذى يخالط الجماهير ويضطر الى حمل خطايا الكثيرين ، ومع هذا يبقى ثابتا رصينا يدبر السفينة وسط العواصف فى هدوء وحكمة ، فهذا هو الرجل الذى يستحق التطويب بعدل لأنه قدم الدليل الكافى على شجاعته ومقدرته .

فلا تعجب اذن ان كنت بسبب تجنبى مخالطة الناس

لا أجد كثيرين يتهموننى . ولا تندهش ان كنت لم أخطىء فى حال نومى ولم أسقط اذ لم يصارعنى أحد ولم يلحقنى أذى ان كنت لم أدخل فى عراك مع أحد . فمن ذا الذى يستطيع أن يشهر بى أو يظهر عيوبى ؟ أهذا السقف أم هذا البيت ؟! بلى فانه ليس لهما لسان .. فهل تستطيع اذن والدتى التى تعرف شئونى أكثر من الجميع أن تجعلنى أخطىء ؟ حسنا فليس لى معها تعامل ولم نتخاصم يوما ، وحتى ان حدث هذا فلا توجد أم يصل بها الحال الى أن تفقد حنانها وأمومتها ، ويعوزها العطف على ابنها حتى تسب وتكيل التهم أمام الجميع لولدها الذى حملته وربته من غير أن تكون هناك ضرورة ملحة أو شخص يحثها على التصرف هكذا . ومع هذا فلو أراد انسان أن يكتشف نفسى لوجدت هناك أشياء كثيرة فاسدة . ولعلك أنت بنوع خاص تدرك ذلك ، فقد اعتدت أن تغمرنى بمديحك عند الجميع . ولكنى لست اقول هذه الأمور لمجرد التواضع ، فانى اذكر كم من مرة قلت لك ونحن نناقش هذا الموضوع : اذا خيرت بين النجاح فى رعاية الكنيسة أو فى حياة الرهبنة فانى سأفضل ألف مرة الأمر الأول . لأنى لم أفتر عن تطويب أولئك الذين يستطيعون تدبير هذه الخدمة حسنا ولن يخالفنى أحد فى أنه لو كنت صالحا لحمل هذا النير الذى أحسبه بركة لما فررت . ولكن ما حيلتى ؟ فما من شىء يضر بخدمة الكنيسة قدر ماعندى من تكاسل واهمال

قد يظنه البعض انه نسك ولكنه قناع أخفى وراءه فشلى ، واحجب به كثرة خطاياى حتى لاتنكشف . لأن من اعتاد أن يركن الى الراحة ويمضى وقته فى كسل واسترخاء فحتى لو كان نبيل الطبع فانه سيرتبك لقلة حيلته ... أما اذا كان بطىء الفهم وغير خبير بهذه الجهادات ــ وهو ماينطبق على حالتى ــ فمتى أوكلت اليه هذه الخدمة فلا فرق بينه وبين تمثال حجرى . لذلك فقليلون من الداخلين الى هذا الاختبار العظيم هم الذين يتألقون ، والغالبية ينكشفون ويفشلون ويعثرون أمام صعوبات وآلام كثيرة .. ولا غرابة ، فهناك فارق بين المناضل الذى صقلته التجارب والبلايا وبين المتهاون غير المدرب .

لأجل هذا ينبغى للقادم على هذه المعركة أن يحتقر المجد الباطل ويتسامى عن الغضب وأن يتصف بالحكمة والحصافة . أما الذين ألفوا حياة الوحدة فليست بهم حاجة الى ممارسة هذه الفضائل،لأنه ليس هناك من يثيرونغضبهم حتى يمارسوا كبح جماح غيظهم . وليس لهم معجبون أو تابعون حتى يتدربوا على احتقار المديح . وليست لهم حاجة الى الحكمة والفطنة التى تتطلبها رعاية أمور الكنيسة . من أجل هذا فانهم اذا أقدموا على جهادات ليس لهم خبرة بها ، يحارون ويفقدون رشدهم ويتملكهم اليأس . وعوض أن ينموا فى الفضيلة نراهم يفقدون ماقد يكون لديهم منها .

- ٨ -

باسيليوس : وماذا بعد ؟ أنولى شئون الكنيسة من شغلوا بأمور العالم ، وبرعوا فى المشاحنات والثلب والقدح ، وامتلأوا غشا ، وتمرسوا فى فنون اشباع الشهوات ؟!!

ذهبى الفم : صبرا ياعزيزى ، فلا يمكن أن يدور بخلدك عند اختيار الكهنة أن ننتخب من هم هكذا ، بل ينبغى أن يتم الاختيار من بين الذين استطاعوا بعد الاختلاط بالعالم أن يحفظوا طهارتهم بلا دنس ويحتقروا أمور العالم وشهواته ويعيشوا فى نسك وهدوء ويقظة متحلين بباقى فضائل الرهبان ان لم يزيدوا عنهم فيها .

أما الذى استطاع بعزلته وعدم اختلاطه بالناس أن يحجب عيوبه ، فانه ان خرج الى المجتمع فسرعان ماينكشف أمره ويصبح أضحوكة ويقابل المخاطر التى كدت انا أن أجابهها لولا عناية الله التى أزاحت جمر النار عن رأسى . لأن من كان بهذه الصفة لا يخفى أمره على أحد اذا عين فى مكان بارز ، لأن كل أموره ستنكشف . وكما أن المعادن تمتحن بالنار هكذا الكهنوت يميز نفوس الناس ويفرزها . فأى انسان ان كان غضوبا أو صغير النفس أو ساعيا وراء المجد أو كان متعجرفا أو مهما كان فيه من أمثال هذه الخصال ، فان أمره ينفضح وسريعا ماتنكشف عيوبه .

ولا تنكشف فقط بل تبدو أكثر شناعة وقبحا . فكما أن جروح الجسد يصعب شفاؤها اذا خدشت قشرتها ، هكذا صحة النفس اذا تهيجت وأثيرت فانها تزداد حدة وتدفع أصحابها الى السقوط فى خطايا أكبر .. لأن هذه الأسقام تجر من لايقمعها الى طلب المجد والكبرياء والسعى وراء مقتنيات العالم ، ثم تجعله ينحدر الى الترفه والراحة والكسل ، وشيئا فشيئا الى شرور أقبح . فما أكثر الظروف القادرة فى المجتمع على تضليل الفكر واعاقة الطريق المستقيم المؤدى الى الله . وأعظم هذه الشرور مخالطة النساء وليس من الممكن للأسقف الذى أقيم على الرعية كلها أن يعنى بالرجال ويهمل النساء اللاتى هن أكثر حاجة الى الاهتمام ، بسبب تخوف الاسقف من التعرض للخطية . لذلك يتعين على المتصدر للاسقفية أن يعنى بصحة النساء الروحية ، وان لم يكن أكثر من عنايته بالرجال فعلى الأقل قدر اهتمامه بهم . لأنه من الضرورى ان يفتقدهن فى مرضهن ويعاونهن فى شدائدهن . وفى مثل هذه المواقف يجد الخبيث مداخل عديدة تستلزم أن يحصن المرء نفسه امامها بيقظة حارة . فليست العين الفاجرة وحدها بل العفيفة أيضا قادرة على أن تنفذ الى أعماق الفكر فتشوشه . والاطراء يوهن العزم ، والكرامات تستعبد الانسان . وحتى المحبة المتقدة التى هى نبع كل خير ــ تصبح سببا لعدد لا يحصى من الشرور لمن لا يحسن

استخدامها . والى جانب كل هذا فان الاهتمامات العديدة تفقد العقل حدته وتثقل الفكر . ومتى انفجر الغضب ثار كالدخان فى جوانح الانسان ، وسيطر على انسانه الداخلى .

ــ ٩ ــ

فضلا عن الأذى الناجم عن الحزن والاهانات والشتائم والتقريع من الأكابر والأصاغر من العقلاء والسفهاء ــ لان الذين ينقصهم الفكر الصائب مغرمون بالنقد واللوم ولا يقبلون حجة أو عذرا . لهذا وجب على الأسقف الحكيم الا يستهين بهؤلاء بل يعنى بمعالجة نتائج مايثيرونه حوله برحابة صدر واتساع ، متسامحا فيما ينسبونه اليه من أخطاء بغير حق ، عوض أن يسخط عليهم ويغضب . لأنه ان كان بولس الرسول قد خشى أن يتهمه تلاميذه بالسرقة ، من أجل هذا فوض آخرين ممن أؤتمنوا على خدمة المال حتى يتجنب كما يقول « أن يلومنا أحد فى جسامة هذه المخدومة منا » (٢ كو ٨ ــ ٢٠) أفلا ينبغى أن نفعل نحن كل ما نستطيع لنزيل الشكوك الرديئة ، حتى وان كانت لا أساس لها وغير معقولة وغريبة عن تفكيرنا ؟! . فنحن لسنا بعيدين كلية عن أى خطية بمقدار ما ابتعد بولس الرسول عن السرقة . ورغم بعده البين عن هذه الخطية فانه لم يستهن بظن العالم .. فقد كان من الجنون أن يثار شك حول هذا القديس المغبوط ، ومع هذا فانه لم

يستبعد أسباب هـــذا الظن رغم لا معقوليته ورغم عدم تصديق أى عاقل له . كما لم يزدر بسخف العامة ، ولم يقل فى نفسه : من ذا الذى تسول له نفسه ان يشك فينا بعد هذه العجائب التى فعلناها وقوة الاحتمال التى اصطبغت بها حياتنا ، وبعد كل هذا التكريم والاحترام الذى لقيناه منكم ؟! .. لكنه على العكس توقع هـــذا الشك الحقير واقتلعه من جذوره ، أو على الأصح لم يدعه ينمو على الاطلاق .. فلماذا فعل هذا ؟؟ يقول الرسول : « معتنين بأمور حســـنة ليس قدام الرب فقط بل قدام الناس أيضا » (٢ كو ٨ : ٢١) . فبهذا المقـدار من الحمـاس وأكثر منه ينبغى أن نتصرف لكى نخمد ونمنع الشائعات الرديئة ، ويكون لنا بصيرة تجعلنا نتداركها قبل تفاقمها ، فنزيل الأسباب المؤدية اليها ولا ننتظر حتى تثبت وتصير موضوع الاحاديث التى تتناقلها الألسن ، لأنه يصعب فى تلك الحالة هدمها والخلاص من آثارها بغير أن يلحق ضررها بالكثيرين .

لكن حتى متى أظل أطلب مالايمكن بلوغه ؟ لأن من أراد أن يعدد كل المصائب فكأنما يريد أن يعدد أمواج المحيط . فحتى لو تنزه المرء عن الهوى ــ وهو أمر مستحيل ــ من أجل اصلاح ضعفات الآخرين ، فهو مضطر الى احتمـال الكثير من البلايا . فاذا اضيفت الى هذه أيضا هفواته فكم يحتمل من هم ونكد ؟ فكل هذه ينبغى أن يحتملها من يريد أن ينتصر على خطاياه وخطايا تابعيه .

— ١٠ —

باسيليوس : فهل خلوت اذن من المتاعب ؟ أليست لديك الآن هموم وأنت تعيش وحيدا ؟؟

ذهبى الفم : لاشك لدى الكثير من الهموم ، لأنه كيف يمكن أن يحيا انسان هذه الحياة المليئة بالمتاعب والصعاب ثم يخلو من المشـــاكل والهموم ؟ .. ولكن كمـا أن الأمر ليس واحدا بين من يغوص فى لجة لانهاية لها وبين من يعبر نهرا ، هكذا هو الفرق بين اهتمامات المتوحدين ومتاعبهم وبين سكان العالم . فلو كان فى مقدورى أن أعتنى بأمور غيرى لما توانيت ، لأن هذا هو ما أتمناه وأصلى من أجله لكن حيث لا أستطيع أن أفعل هذا بل أجاهد لكى انقذ نفسى من الهلاك فهذا يكفينى .

باسيليوس : أتظن أن هذا أمر عظيم ؟ وهل تتصور أنك ستخلص بغير أن تخدم غيرك ؟؟

ذهبى الفم : لقد احسنت القول ، لأنى لا اصـــدق شـــخصيا أن الانسان يمكن أن يخلص اذا لم يسع لأجل خلاص أخيه ، والا لكان قد انتفع بهذا ذلك الرجل الشقى الذى ورد ذكره فى الكتاب المقدس والذى لم يمس ما أعطاه سيده من الوزنات ، فهلك لأنه لم يضعها عند الصيارفة حتى تتضاعف لحساب سيده (متى ٢٥ : ٢٤ ــ ٢٧) .

ومع هذا فانى اظن ان حسابى عن تقصيرى فى خدمة الآخرين يكون اهون مما لو حوكمت عن هلاك نفسى والآخرين بسبب سوء تصرفاتى بعد نوال نعمة الكهنوت . فانا أثق أن عقابى الآن سيكون على قدر خطاياى . لكن أخشى بعد قبولى هذه الكرامة أن يتضاعف عقابى ليس مرتين أو ثلاثة فحسب بل مرات بعدد من تسببت فى اعثارهم . وأى ذنب افظع من أن أستخدم الكرامة التى شرفنى بها الله فى اغضابه ...

- ١١ -

فلنفس هذا السبب ادان الرب شعب اسرائيل بشدة ، وأبان لهم انهم كانوا يستحقون عقابا اشد لأنهم أخطأوا بعد كل ما اغدق عليهم من احسانات .. فيقول : « أعاقبكم على جميع ذنوبكم » (عاموس ٣ : ٢) ويقول ايضا : « واقمت من بينكم أنبياء ومن فتيانكم نذيرين » (عاموس ٢ : ١١) وقبل زمان الأنبياء لما اراد الله ان يظهر كيف أن خطايا الكهنة كانت تستحق عقابا أشد من الشعب ، أمر أن يقدم عن الكهنة من القرابين بمقدار مايقدم عن الشعب كله (لا ٤ : ٣ ـ ١٤) مما يدل على ان جراح الكهنة تحتاج الى عناية بمقدار ماتحتاج خطايا الشعب بأسره . وماكان الكهنة يحتاجون الى هذا كله لو لم تكن اثقالهم أسوأ . فهى فى الحقيقة ليست بطبيعتها

سيئة ، بل تضاعفت بسبب تجاسرهم على حمل نير الكهنوت بغير استحقاق . وما لى أتكلم عن الكهنة ، ان كانت بنات الكهنة اللاتى لانصيب لهن فى الكهنوت ـ لكن بسبب الكرامة التى نالها آباؤهن يتحملن عقوبات أشد عن مثل الخطايا التى ترتكبها باقى بنات الشعب . فاذا سقطت فى الزنى بنات من الفريقين كان عقاب بنات الكهنة أشد قسوة مما تلاقيه بنات الشعب . أفرأيت كيف يقدم الله البراهين المديدة عن شدة العقاب الذى ينزل على الحاكم اكثر من المحكوم ؟! .. فهو يعاقب ابنة الكاهن أكثر من غيرها بسبب انتمائها الى أبيها . وسوف يعاقب اباها لهذا السبب عينه عقابا أقسى من عقاب آباء بنات الشعب ، لأن الضرر والخسارة لا تقف عند حد الكاهن وحده بل تشمل نفوس الآخرين من الضعاف وممن يقتدون به . وهذا ماعناه حزقيال النبى فى نبواته عن الحكم بين «شاة وشاة . بين كباش وتيوس » (حز ٣٤ : ١٧) .

- ١٢ -

أرايت كيف أن خوفنا له مايبرره ؟ ... ففضلا عما أوردته فانى أحتاج من جانبى الى كفاح وجهاد حتى لاتغمرنى أوجاع النفس ، ومع هذا فانا أحتمل التعب ولا أهرب من القتال . فحتى الآن يستهوينى السبح الباطل ... لكنى كثيرا ما أرجع الى نفسى فارى أنى خدعت ، وفى

مرات أزجر نفسي المستعبدة لهذه الخطية . وحتى الآن تراودني أيضا شهوات فظيعة ، لكن اشتعالها يكون هافتا طالما لايعلق نظري بوقود يمكن أن يغذي نيران الشهوات . حقيقة اني استرحت تماما من التكلم عن الغير أو سماع النميمة ، اذ ليس هناك من أكلمه ولأنه ليس للحوائط السنة حتى تتكلم ، ومع هذا فان تحاشي الغضب ليس دائما من السهل رغم عدم وجود ما يبعث عليه . فكثيرا ما يتسبب تذكر الناس المفسدين وأفعالهم الشريرة في اثارة قلبي . ولكن لا يتم هذا بصفة دائمة،فسرعان ما أطفىء لهيب الغضب وأعيد السكينة الى قلبي مقنعا نفسي بأنه من غير الملائم أن يتغافل الانسان عن خطاياه وينشغل بخطايا غيره . فلو أني خالطت الناس واندمجت في مثيرات عديدة ، لما تمكنت من الاستفادة من هذه التحذيرات والتأملات الروحية التي تهذب سلوكي . فكما أن من يجرفه تيار عظيم الى الهاوية يدرك الدمار الذي سينحدر اليه ولا يستطيع أن يفكر في ملجأ يلوذ به ، هكذا يكون حالي حين أتخبط بين ضجيج شهواتي وأرى عقابي يزداد كل يوم . أما أن أسيطر على ذاتي كما هو حالي الآن وأزجر مثل تلك الشهوات التي تثور بين جوانحي ، فلن يكون أمر سهلا كما كان قبلا لأن نفسي ضعيفة صغيرة سهلة الانقياد ، ليس أمام هذه الشهوات فحسب بل أيضا تجاه الحسد الذي هو أشر الأمراض كلها ، كما أنها لن تحتمل الاهانات أو الكرامات

باعتدال ... فالاهانات تكدرها ، والكرامات تجعلها تشمخ . وكما أن الوحوش متى كانت في كامل قوتها تغلب من يحاربها ، وأما ان أصابها الوهن والضعف وأذلها الجوع فانه يسكن غيظها وتهمد قوتها حتى يسهل ليس للقوى فقط بل للضعيف أيضا غلبتها ـ هكذا حال المحاربات الروحية فان من يذلل جسده يمكنه قياد نفسه بحكمة ، ومن يسرف في تدليل جسده وتغذيته يصير عراكه معه أشق ، فيتمرد جسده ويقضي حياته في خوف ورعب .

فعلام تتغذى هذه الوحوش اذن ؟ ... غذاء السبع الباطل : الكرامات والمديح . وغذاء الكبرياء : امتداد السلطان والنفوذ . وغذاء الحسد : نجاح الجار . وغذاء الشح : سخاء الكريم . وغذاء الشهوات الجسدية : الترفه والصحبة الدائمة للنساء . ولكل مرض من الأمراض مايغذيه . وجميع هذه تهاجمني بشدة ان أنا نزلت الى العالم ، فتمزق نفسي وتحطمها وتجعل معركتي معها أشد صعوبة . بينما لو بقيت هنا في وحدتي لتمكنت من اخضاعها بشدة وبفضل الله يمكن قهرها ...

من أجل كل هذا التزم قلايتي . لا اخالط أو أحادث أحدا وأحتمل ملامة مثل هذه .. فليس من السهل أن أكون اجتماعيا وفي الوقت نفسه أضمن سلامتي . لهذا ارجو أن تشمل بعطفك من يواجه هذه الشدة بدلا من أن تبكته ،

أما وانى لم افلح حتى الآن فى اقناعك ، لذا فقد آن الوقت كى ألقى عليك بسرى الخفى . وقد لايصـــدقنى الكثيرون فيما اقول ، ولكن مع ذلك فلن أخجل من اعلان الحقيقة أمام العالم . اذ رغم أن سرى هذا يكشف عن ضـــمير شرير واثام عديدة الا أن الله العتيد أن يدينا لايخفى عليه سر ...

ماهو اذن هذا الأمر الذى لم أبح به بعد ؟؟

منذ ذلك اليوم الذى ألقيت الى دعوة الكهنوت ، أهتز كيانى كله وأصابنى الفزع وخيمت على نفسى ســحابة من الكآبة . لأننى كلما تفكرت فى مجد عروس المسيح وطهارتها وجمالها الروحى وحكمتها ولياقتها ، ثم أقارن هذا بما لدى من مناقص فانى أرثى لحالها وحالى . ووسط حزن متصل وحيرة كنت أخاطب نفسى : من الذى أشار بهذا ؟ وكيف تخطىء الكنيسة هذا الخطأ العظيم ؟ ولماذا تثير غضب الله حتى تقدم الدعوة لى انا أحقر الناس جميعـا فتعانى عارا هذا مقداره ؟؟ ومازلت أردد هذه الأفكار فى نفسى مرارا ، واذ لم أستطع احتمال فكرة هـــذا الأمر المخيف استغرقت فى ذهول وصمت غير قادر أن أســمع او أرى شيئا . وحين كانت حالة اليأس هـــذه تفارقنى أحيانا تنساب دموعى ويتملكنى قنوط . وبعد فيض من الدموع يستولى على الجزع من جديد ليزعجنى ويربكنى

ويزعزع أفكارى . ووسط هـــذه الدوامة أمضيت أيامى السالفة وأنت لاتدرى عن حالى شيئا ، وتظن أنى أعيش فى سكون وهدوء . الا انى أود أن أكشف لك القنـــاع عن الأنواء التى اجتاحت نفسى ، عساك تصفح عنى وتعدل عن اتهامك لى ...

فلنفترض أن ابنة ملك العالم كله مخطوبة لانسان ما ، وأن هذه العروس قد فاقت بجمالها البارع الطبيعة البشرية ... كما أنها سمت بفضائلها الروحية على جنس الرجال الموجودين والذين سيولدون أيضـــا ، وتفاضلت بحسن أخلاقها الى حد الخيال ... ونفرض أن خطيبها ... وهو يهيم بحبها ، سمع أن رجلا حقيرا خسيســـا لا أصل له ومشوه الخلقة ، وبالجملة دنيئا سيقترن بعذرائه المحبوبة الجميلة !! فهل نجحت فى أن أطلعك على جانب ضئيل مما يكدرنى ؟ ...

وسأضرب لك مثالا آخر :

نفرض أن جيشا مكونا من المشـــاة والفرسان وقطع البحرية ... ولنتصور أنه قد وقف فى مقابل هذه الجيوش عدو من البرابرة المتوحشين ، ثم بدأت المعركة . ولنتخيل أن أحدهم اختطف صبيا نشأ فى الريف ولا يدرى شيئا الا رعاية الغنم ، ثم ألبسه بدلة عسكرية وسلحه بأسلحة

نحاسية ، وطاف به أرجاء المعسكر وأراه الفصائل وقادتها ورماة القوس والمقاليع وقادة الجيوش وأمراءها والفرسان وخيلها ورماة الرمح والفيالق وآمريها والمراكب الحربية وقد حشد عليها الجند وامتلأت بالعدد المهيأة للحرب . وأطلعه أيضا على مخططات العدو الدفاعية ومخازنه المختلفة ... وعدد له أهوال الحرب وكوارثها ... والدماء التى تسيل أنهارا وانين الجرحى وصراخ الأحياء وأشلاء القتلى ... والأرض التى لاتراها من كثرة ماعليها من قتلى ودماء ورماح وأسهم وسنابك خيل وأشلاء جند وعجلات عربات حربية وخوذات . ثم عدد له بعد هذا مصائب القوات البحرية واحتراق السفن الحربية وسط الأمواج وغرقها بمن عليها من رجال مسلحين ... وامتزاج مياه البحر بدماء الجرحى وملاطمتها للسفن وتناثر جثث القتلى ... فاذا احيط هذا الصبى بكل ويلات الحرب ومصائبه ، ناهيك عن ذل الاسر والاستعباد الذى يفوق شره كل انواع المميتات ، ثم أركب حصانا وأطلقت يده فى قيادة كل هذا الجيش ... أفتظن حقا أن لهذا الفتى قدرة أن يتحمل هذا ؟! أم أن يخور ويرتعد هلعا عند أول نظرة .. ؟!!

- ١٣ -

لا تظن أنى قد بالغت وعظمت الأمر فيما صورته ، ولا تفترض انه مادمنا مسجونين داخل هذا الجسد بحيث لانستطيع أن نعاين شيئا من أمور العالم غير المنظور فقد غالينا فيما ذكرناه . فلو كان ممكنا أن نعاين بهاتين العينين المحسوستين صفوف جند الشيطان المظلمة ومحارباته الشريرة لرأيت حروبا أعظم وأشنع مما وصفناه . فهذه ليست حربا على أمور محسوسة مثل عربات حربية وعجلات أو نيران أو نبال ، بل مع أسلحة أشد فتكا . والانسان فى حربه هذه لايحتاج الى ملابس أو درع أو سيف أو رمح ، اذ يكفى أن يرى المرء هذا الشيطان اللعين حتى تصاب نفسه بشلل ما لم تكن هذه النفس نبيلة للغاية ، وأن تحظى الى جانب شجاعتها بمعونة وافرة من الله . ولو كان فى امكانك أن تخلع هذا الجسم أو حتى تستبقيه على أن تعاين بالعين المجردة بوضوح وغير خوف صفوف جند ابليس ومحارباته ضدنا لكنت ترى ليس أنهار دماء وجثث موتى بل كنت تبصر نفوسا ساقطة وجروحا لا تلتئم ، حتى لتظن أن كل أهوال الحرب التى سبق أن صورتها لك لاتعدو أن تكون عبث أطفال ولهوا أكثر من كونها حربا . وكثيرون يصابون يوميا فى هذه الحرب ، ولكن جروح كل من هذين الحربين لا تؤدى الى موت من نوع واحد . فكما أن الفرق شاسع وكبير بين الجسد والروح هكذا الفرق واسع بين

موت كل منهما . فالروح اذا جرحت وسقطت فانها لاترقد كالجسد الميت بل انها تعذب بالضمير الشرير ، وبعد انتقالها من هذا العالم فى يوم الدينونة فانها تسلم لعذاب ابدى . واذا كان الانسان لايحزن لما يصيبه من جراحات ابليس فما أصعب ماينالـه نتيجة عدم احساسه هذا ، لأن من لم يتألم من الجرح الأول فلن ينجو من الاصابة بجرح ثان يليه جرح ثالث .. لأن ابليس اللعين لن يكف عن حربه الى النفس الأخير كلما وجد نفسا مستلقية متهاونة بما أصابها من جروح . واذا تساءلت عن فنون حرب ابليس لوجدتها أشد قسوة وأكثر تنوعا ، فلن يضارعه أحد فى أنواع الحيل والخداع ... ولا يمكن لأحد ان يحمل هذا القدر من الكراهية والحقد لألد أعدائه كما يحمل ابليس للبشرية . بل لو أننا تخيرنا أشد الوحوش شراسة وفتكا وقارناه بما لدى ابليس لوجدنا هذا الحيوان أكثر منه لطفا وخضوعا . فابليس ينفث حقده وكراهيته عند مهاجمة نفوسنا . كما وان زمان الحرب الحسية يكون قصيرا ومحدودا وتتخلله فترات هدنة عند حلول الليل او التعب من القتال وخلال أوقات الطعام وغير هذه من الأسباب التى من أجلها يمنح الجندى هدنة لكى يتخفف من أسلحته ويلتقط أنفاسه وينعش قواه بالطعام والشراب وما أشبه ليجدد حيويته . أما فى حرب الشيطان فلا يمكن للانسان الذى يريد أن يعيش بلا لوم أن يلقى عنه سلاحه

حتى أثناء النوم . وهذا يقتضى أمرا من اثنين : اما ان يسقط ويهلك بغير سلاح ، أو يبقى ساهرا مدججا بالسلاح لأن ابليس يقف بصفوفه يترصد غفلتنا باذلا من الجد والحمية لهلاكنا أكثر مما نبذل نحن لخلاص نفوسنا .

ولكونه غير منظور فان مباغتته لنا تسقط غير المستعدين فى شرور لا حصر لها ، مما يؤكد أن هذه الحرب أشق وأصعب من الحرب الحسية .

أفبعد هذا تريدنا أن نقود جند المسيح ؟ .. ان هذا يعنى قيادتهم لخدمة الشيطان ، لأنه ان كان القائد الذى يأمر ويدبر هو أضعف أفراد الجماعة وأقلهم حنكة وتجربة ، فانه لعدم اختباره يقود من أؤتمن عليهم الى طريق ابليس وليس الى طريق المسيح ... فلماذا تتنهد وتبكى ؟ ... فالأمر لا يستوجب النوح بل الفرح والسرور .

باسيليوس : بل ان حالى هو الذى يستوجب النحيب والرثاء ، لأنى بدأت أدرك الى أى حد من الشرور قد دفعتنى .. لأنى أتيتك طالبا معرفة الأعذار التى يمكن ان أبرر بها موقفك أمام من يلومونك ، لكنك أخرجتنى مهتما بأمر آخر ، اذ لم يعد يعنينى ما أقدمه عنك من تبريرات بل ما أحتج به عن أخطائى أمام الله . لكنى أسألك وأرجوك ان كان حقا يهمك أمرى ، وان كانت هناك تعزية فى المسيح ،

او تسلية من اجل المحبة ، وان كانت احشاء ورافة (فى ٢ : ١) فانت دون الجميع قدتنى الى هذا الخطر . فامدد لى يد العون ، وقل وافعل ماتستطيعه من اجل نجاتى ، ولا تقسى قلبك فتتركنى ولو لحظة واحدة ... لانى اصبحت الآن اكثر من اى وقت مضى محتاجا الى قربك منى .

ذهبى الفم : فتبسمت وقلت كيف يمكن ان اكون نافعا لك او افيدك ازاء عظم المهام الموضوعة عليك ؟ ... ولكن طالما ان هذا يسرك فتشجع أيها العزيز ، لانه فى كل وقت تكون فيه خاليا من اهتماماتك سآتى اليك مواسيا دون ان اتوانى عن اى جهد فى مقدورى .

فلما سمع ذلك بكى اكثر ، ثم نهض فعانقته مقبلا راسه ، وشيعته مشجعا اياه على تحمل رسالته ببسالة .. وقلت له : انى اثق فى المسيح الذى دعاك واقامك على رعيته انك ستكسب من هذه الخدمة دالة امامه تجعلك قادرا على ان تقبلنى فى مسكنك الأبدى ان تعرضت لخطر فى اليوم الاخير .

تم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية برقم ١٩٧٤/٤٦٣٥

دار الجيل للطباعة : شارع قصر اللؤلؤة (الفجالة) مصر